

مري الترت

العدد السابع عشر – خريف ٢٠٢٢ / شتاء ٢٠٢٣



مَلَفَّ العدد
• ريشة مسكونةً بذكريات بيروت

- «الهدى» منارة لبنانية في أميركا
- فهمُ التراث والحفاظ عليه
- إشكاليات تدريس تاريخ لبنان
- المرأة اللبنانية رائدة في الشرق

مرايا التراث

أكاديمية مُحَكَّمة تُصدر مرتين في السنة

يُنشرها

مركز التراث اللبناني

في

الجامعة اللبنانية الأميركية LAU

رئيس التحرير المسؤول/ مدير المركز

هنري زغيب

الهيئة العلمية

الأساتذة الدكاترة (ترتيباً أبجدياً بِاسْمِ العائلة):

ناديا اسكندراني | جامعة بيروت العربية | رئيسة قسم اللغة الفرنسية وآدابها

سامي بارودي | الجامعة اللبنانية الأميركية | أستاذ العلوم السياسية والعلاقات الدولية

رمزي بعلبكي | الجامعة الأميركية | أستاذ كرسي الدراسات العربية

وحيد بهمردى | الجامعة اللبنانية الأميركية | رئيس دائرة التواصل والفنون واللغات

كاتيا جينياتي | الجامعة اللبنانية الأميركية | عميدة كلية الآداب والعلوم

نضال الأميوني دكاش | الجامعة اللبنانية الأميركية | أستاذة الآداب والعلوم الإنسانية

أهيف سنو | جامعة القديس يوسف | أستاذ الدراسات العربية والإسلامية

أنطوان قسيس | جامعة الروح القدس - الكسليك

الإدارة والتحرير

مركز التراث اللبناني - الجامعة اللبنانية الأميركية - قريطم - بيروت

هاتف: ٦٤ ٦٤ ١ ٧٨ ٩٦١ + (المقسم ١٦٠٠)

ص ب: ٥٠٥٣ - ١٣ بيروت - لبنان

clh@lau.edu.lb

www.lau.edu.lb/centers-institutes/clh

مجلة مرايا التراث Facebook: Mirrors of heritage

تصميم و إخراج STRATCOM-LAU

الغلاف: لوحتان من ١٠ لوحات بريشة لميا اللبّان (ملف هذا العدد)

مري التراث

العدد السابع عشر - خريف ٢٠٢٢ / شتاء ٢٠٢٣

٣

أولى الـ«مرايا» - هنري زغيب
الأهم من حفظ التراث: نقله إلى الجيل الجديد

تراثنا الوطني

٨

سهيل منيمنة
فهم التراث ضرورة، والحفاظ عليه واجب

تراثنا الصحافي المهجري

٢٤

د. ثيليان قريان عقل
«الهدى» النيويوركية: منارة لبنانية في أميركا

تراث غربي بقلم مبدع لبناني

٣٤

مصطفى فروخ
من دفاتر مصطفى فروخ

ملف العدد

تراث الحنين

٣٩

ريشة مسكونة بذكرات بيروت

تراثنا التاريخي

٥٤

مسعود ضاهر
تدريس تاريخ لبنان: كتاب موحد؟ أم منهج موحد؟

تراثنا السينمائي

٧٠

هادي زكّاك
طرابلس ذات «السيّلمّا»: مدينة سبّاقة إلى تراث سبّاق

تراثنا الحضاري

٨٥

ندين عراجي
المرأة اللبنانية: قيادة ساطعة في لبنان والشرق

Patrimoine Historique

Pierre Moukarzel

١٢٤

Les chrétiens des régions voisines de Tripoli au début du XIV^e siècle

Marwan Abi Fadel

١٥٨

Phénicie et Carthage d'après Orose

الأهم من حفظ التراث: نقله إلى الجيل الجديد

هنري زغيب

رئيس التحرير

منذ تأسيس «مركز التراث اللبناني» (٢٠٠٢) وإطلاق هذه المجلة «مرايا التراث» (٢٠١٤)، ونحن مُوغلون في الأبحاث والدراسات والندوات والمؤتمرات، بين حَرَم «الجامعة اللبنانية الأميركية» LAU أو خارجَه، داعين إلى الحفاظ على أيِّ ذرّة من التراث، حفظاً إياها وتخليداً بها ذاكرةً فرديةً على مستوى الشخص أو المقتني، وتالياً جماعية على مستوى الوطن.

أقول «الوطن» لكنني أراني أعمّم. الواقع أنّ حفظ التراث يبدأ من الأفراد، يتّسع إلى العائلات، فأوسع إلى المؤسسات الثقافية والتراثية، حتى يصبح (إن أصبح) مُلكاً عاماً فيكون عندئذٍ في عهدة الوطن.

سوى أن الأهم من حفظ هذا التراث – فردياً أو عائلياً أو مؤسسياً – العمل على رفعه من متحفّيته الجامدة إلى مشاركته منشوراً أو معروصاً، حتى يكون من السلف إلى الخلف زاداً نابضاً بتواصل حيّ. فما قيمة إرثٍ محجور في مكانه، غاب دَوّوه فغاب معهم في النسيان أو الإهمال حتى يندثر بتوالي الأيام؟

الأهم إذاً هو نقل هذا التراث إلى الجيل الجديد، تماماً كما يتمُّ نقلُ الإرث العائلي من المورّثين إلى المورّثين فيظلُّ حيّاً بالتواصل الزمني. من هنا ضرورة أن ينتقل هذا الإرث (العائلي إجمالاً) لا بما فيه من تراثٍ مادي فقط (مال أو ممتلكات أو عقارات أو موروّثات مادية) بل كذلك، وتوازياً، بكل ما كان المورّثون يحتضنون من مقتنياتٍ قد يظنّونها نافلةً لِمَن بعدهم فيُهمّلونها أو يرمونها أو يُتلفونها، فيما هي دامغةٌ في حفظ الذاكرة الفردية فالعائلية فالوطنية. ذلك أنّ تلك المعتبرة – خطأً – من النوافل، هي الشاهدة الحية على حقبة لم يبقَ منها أحدٌ حيّاً فبقية هي ذاكرتهم، وتالياً تجدر المحافظة عليها ذخراً لدى الجيل التالي فيبقى أسلافه أحياءً في باله من خلال متروكاتهم.

هكذا يتواصل الإرث، مادّيّه وغير الماديّ، من جيل إلى جيل، فيبقى التراث نابضاً في كل جيل. وحين يبقى نابضاً هذا التراث يبقى الجيل الجديد ذا ذاكرة تُبقيه على صلة يومية مع جذوره، يَغْنى بها ذاتياً ويُغْنِي السوى.

هذا نظرياً. فكيف تطبيقه ؟

في دول عدّة من العالم متاحف صغيرة محلية تتجمع فيها موادّ وأغراض ومقتنيات شخصية وخاصة أودّعها أصحابها قبل غيابهم كي تظلّ شاهدة عليهم وعلى حياتهم حَقْبَتَيْدٍ، يزور المتحف رَوادُه فيتأملون ويستذكرون ويعتبرون. وقد تتعدّد تلك المقتنيات بين صُور فوتوغرافية وأغراض منزلية زال استعمالها فتكون في المتحف المحلي ذاكرةً لأهل المحلة الجُدّد.

في دائرة أوسع، قد تقوم متاحف بلدية يُودّع فيها سكان الحَرَم البلدي ما لديهم من مقتنيات لم يعودوا في حاجة إليها أو انهم ورثوها من أسلافهم ولا تلمّهم، فيكون المتحف البلدي بيت الذاكرة الجماعي لأهل البلدة وسكانها.

وحين تتسع الدائرة أكثر إلى المتحف الوطني، يضمّ المتحف عندئذٍ مقتنيات هامةً تصبح لأجلها زيارته سياحةً تراثيةً على مستوى الوطن من معظم مناطق الوطن.

وكما متاحف الخاصة إجمالاً – محفوظات الأدباء والشعراء والفنانين والمبدعين عُموماً – تضمّ مخطوطاتهم وأعمالهم المطبوعة ومقتنياتهم ومؤلّفاتهم ووثائق بصرية أو سمعية أو ورقية أو مادية أو من نتاجهم أيّاً كان – تكون متاحف المحلية فالبديّة فالوطنية منصة تراث مفتوحة للجيل الجديد في كل وطن وزمن.

ومتى أنقذنا هذا التراث، نكون أنقذنا الذاكرة، إذاً نكون أنقذنا المستقبل.

هزري زعبي

مدير المركز/رئيس التحرير

شروط النشر في مجلة «مرايا التراث»

يَهْمُ مجلة «مرايا التراث»، إدارةً وهيئةً علميةً، أَنْ تَلْفِتَ الباحثينَ إلى التالي:

١. أَنْ يَكُونَ البَحْثُ الْمُرْسَلُ أَصِيلاً فِي بَابِهِ، غَيْرَ مَنْشُورٍ أَوْ مَرْسَلٍ لِلنَّشْرِ فِي مَجْلَةٍ أُخْرَى.

٢. اعْتِمَادُ الْمَنْهَجِيَّةِ الْعِلْمِيَّةِ الْمُتَعَارَفِ عَلَيْهَا فِي الْمَجَلَاتِ الْعِلْمِيَّةِ الْمُحْكَمَةِ: التَّوْثِيقُ فِي كِتَابَةِ الْحَوَاشِي وَالْأَصُولِ وَالْمَصَادِرِ وَالْمَرَاجِعِ وَالْمُخْتَصَرَاتِ الْعِلْمِيَّةِ.

٣. عَدَمُ التَّهْجُمِ الشَّخْصِيِّ وَالْمَاحَاتِ الْأَدْلَجَةِ وَالْإِسْقَاطَاتِ غَيْرِ الْمُسْنَدَةِ فِي مَقَارِبَاتِ الْبَحْثِ.

٤. جَمِيعُ الْأَبْحَاثِ الْمُقَدَّمَةِ إِلَى الْمَجْلَةِ تَخْضَعُ لِتَحْكِيمِ اللِّجْنَةِ الْعِلْمِيَّةِ، وَقَدْ تَسْتَعِينُ إِدَارَةُ الْمَجْلَةِ عِنْدَ الْحَاجَةِ بِهَيْئَةِ اخْتِصَاصِيِّينَ تَبْقَى أَسْمَاءُ أَعْضَائِهَا طَيَّ الْكُتْمَانِ وَفَقِ الْعُرْفِ الْأَكَادِيمِيِّ.

٥. يُرْسَلُ الْبَاحِثُ مَعَ نَصِّهِ مَلَخَّصًا عَنْهُ فِي نَحْوِ ٢٠٠ كَلِمَةً بِغَيْرِ لُغَةٍ بَحْثِهِ (بِالْإِنْكِلِيزِيَّةِ تَفْضِيلًا أَوْ بِالْفَرَنْسِيَّةِ) تَسْهِيلاً لِفَهْرَسَةِ الْمَجْلَةِ وَأَبْحَاثِهَا فِي الْبَيْبِلْيُوغَرَفِيَا الْعَالَمِيَّةِ.

٦. تَحْتَفِظُ إِدَارَةُ الْمَجْلَةِ بِحَقِّ النَّشْرِ أَوْ بِرَفْضِ أَيِّ بَحْثٍ لَا يَسْتَوْفِي شُرُوطَ النَّشْرِ أَعْلَاهُ.

٧. لَا تَتَبَنَّى إِدَارَةُ الْمَجْلَةِ وَاللِّجْنَةُ الْعِلْمِيَّةُ الْآرَاءَ الْوَارِدَةَ فِي الْأَبْحَاثِ الْمَنْشُورَةِ، وَتَبْقَى هَذِهِ عَلَى مَسْئُولِيَّةِ كُتَّابِهَا.

٨. يَحْصِلُ كُلُّ بَاحِثٍ عَلَى ثَلَاثِ نُسخٍ مِنَ الْعَدَدِ عِنْدَ صُدُورِهِ، وَعَلَى نَسْخَةٍ إلكترونيةٍ مِنْ بَحْثِهِ.

٩. تَشْكُرُ إِدَارَةُ الْمَجْلَةِ وَاللِّجْنَةُ الْعِلْمِيَّةُ تَعَاوُنَ الْبَاحِثِينَ فِي احْتِرَامِ شُرُوطِ النَّشْرِ، حِفَاطًا عَلَى الْمَسْتَوَى الْعِلْمِيِّ فِي نَهْجِ الْجَامِعَةِ، وَخِدْمَةً لِنَصَاعَةِ الْذَاكِرَةِ التَّرَاثِيَّةِ فِي لُبْنَانِ.

١٠. يُرْسَلُ الْبَاحِثُونَ نَصُوصُهُمْ بِاسْمِ رَئِيسِ التَّحْرِيرِ عَلَى هَذَا الْعُنْوَانِ:

مجلة «مرايا التراث» - مركز التراث اللبناني

الجامعة اللبنانية الأميركية - قريطم - بيروت

أو إلكترونيًا على عنوان «مركز التراث اللبناني»: clh@lau.edu.lb

تراثنا الوطني

سهيل منيمنة
فهم التراث ضرورة، والحفاظ عليه واجب

تراثنا الصحافي المهجري

د. ليليان قربان عقل
«الهدى» النيويوركية: منارة لبنانية في أميركا

تراث غربي بقلم مبدع لبناني

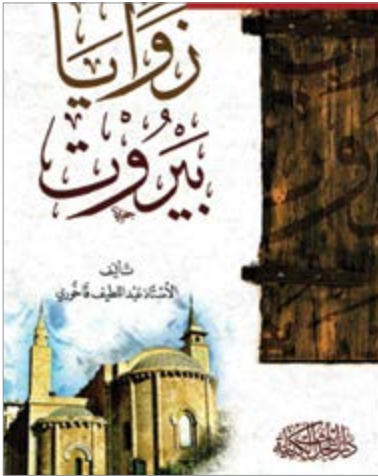
مصطفى فرُّوخ
من دفاتر مصطفى فرُّوخ

فهم التراث ضرورة، والحفاظ عليه واجب

سهيل منيمنة

مؤسس/رئيس جمعية «تراثنا بيروت»

في الأسبوع الأخير من حزيران الفائت، لفت انتباهي الصديق المؤرخ عبد اللطيف فاخوري إلى صورة التقطها المهندس عبد الله عبسي في موقع «الدباغة» لمنطقة أسواق بيروت، ونقلها إلى صفحته على الفايسبوك. لاحظتُ في الصورة اختفاء درَجين قديمين مُوصِلين إلى جامع الدباغة وقاعَتَي الجامع. وكنت سابقاً (في حزيران ٢٠١٥) صورتُ



المعالم التاريخية المتبقية من هذا الموقع، وكنتُ برفقة الأستاذ فاخوري والصديق ابراهيم صيداني، فتشكّلت لديّ مجموعة أحفظ بها، تُبيّن موقع الجامع وعقوده ودرجه وبعض جدرانه. ووثق الصديق الفاخوري تاريخ هذا المسجد ورجاله وأوقافه في كتابه المانع الجامع «زوايا بيروت».

غلاف «زوايا بيروت»

موقع الدباغة (عدسة الكاتب)



طبعاً هذه ليست المرة الوحيدة يتم فيها التعدي على التراث المادي البيروتي نتيجة عوامل ثلاثة: الجهل، الإهمال المتعمد، والتدخلات السياسية.

من مآسي هذا التعدي

- الأمثلة أكثر من أن تسعها مقالة واحدة، وهنا بعضها:
ساحة البرج (الشهداء) وما أصابها من إهمال وتخلٍ مقصود، هي التي تحكي تاريخ مدينة منذ عقود بل قرون.



ساحة الشهداء منتصف الستينيات (بطاقة بريدية)

- السراي الصغير (مقر الحكومة القديم) كانت آية في الجمال العمراني. بُنيت عام ١٨٨١ وهدمت عام ١٩٥٠ بحجج واهية.
- الأسواق القديمة وما كانت تحويه من عمارة تراثية، منها مثالا السبيل الأندلسي.



السبيل الأندلسي
في أسواق باب ادريس
١٩٦٢

- زوايا بيروت الدينية القديمة الثلاثون. هُدمت جميعها.
- إهمال المباني التراثية عمداً، لغياب قانون واضح يحميها ويعوّض على مالكيها، ولأسباب يتدخل فيها رأس المال يتسلط به بعض السياسيين والمقاولين.
- التعديّ السافر على الأملاك العامة، كما في محلّتي الروشة (حجب منظر صخرة الروشة ومحيطها البحري عن عيون المارة) والرملة البيضاء (إقامة مشاريع ومراكز سياحية بطريقة مخالفة القانون)، وهي نتيجة عوامل سياسية معروفة يستفيد منها «الزعيم» وبطانته على حساب الشعب وحقه الطبيعي المنصوص عنه في الدستور والقوانين.



التعدي على الأملاك العامة في الرملة البيضاء (المفكرة القانونية)

- إهمال غير مبرر لمساحات خضراء تعتبر متنفساً للمدينة وأهلها. مثالا: حديقة المفتي الشهيد الشيخ حسن خالد.
- هذا جزء من كلّ، ولتفاصيل أكثر: الرجوع إلى صفحة «قضايا تراثية بيروت» على موقع جمعية تراث بيروت:

www.beirutheritage.org

هذا الإجحاف يحق المدينة وأهلها سبقتُه منذ زمن عملية طمس تراثها المعنوي عمداً، نتيجة عوامل سياسية طائفية ومذهبية.

ما هو «التراثي»؟

في هذه الدراسة سأتناول فهم الموروث المادي المعماري البيروتي مع إشارة تعريف بالتراث المعنوي أي غير المادي.

ثمة إشكالية في فهم التراث. فمن متابعات جمعيتنا، ومما دونناه في هذا المجال منذ أكثر من ستة أعوام، لاحظنا حالات لا تتناسب فيها مواقف تسجيم وأنظمة المعرفة الحالية. في هذه الحالة غالباً ما يرتبط إدراك الظاهرة بإعادة هيكلة المجالات الإشكالية وإعادة صياغة الأهداف في الفهم. ولحل هذه الإشكالية يجب تقديم مفهوم واضح للتراث عملياً ونظرياً، فالتراث جزء من واقع اجتماعي لا يمكن اعتباره منفصلاً عنه. وكي نوصل رسالة التراث الواضحة، تجب مراعاة الجوانب الاجتماعية المختلفة للواقع الموضوعي.

من هذا المنطلق أرى أن التراث مادة هامة تستحق أن تكون ضمن مناهج المواد التعليمية في مدارس الناشئة في لبنان لترسيخ جذور المواطنة الحقّة في نفوسهم فيكون لديهم عتاد يواجهون به من يتآمر على هويتهم ومحيطهم وتاريخهم.



تعريف تلامذة المدارس بتراثهم من أهم أنشطة جمعية «تراثاً بيروت»

مفهوم التراث ومكانته

عن رئيس كرسي الأونسكو في الجامعة اليسوعية USJ البروفسور أنطوان مسرّة أن «ليس التاريخ كتاباً يتعلّم فيه التلامذة ما يُفرغونه في الامتحان دون أن يؤثر في تنقية الذاكرة الجماعية المشتركة وفي سلوكيات الحياة اليومية. ومؤلفو كتب التاريخ المدرسي والمؤرخون التقليديون ينقلون الأحداث أفقيّاً، ويتجاهلون الأبعاد الثقافية وجوانب التراث المادي والمعنوي في بناء الأوطان. مفهوم التراث، عند عدم التعمّق في أبعاده الثقافية، غالباً ما يقتصر على حنينٍ إلى الماضي، وعلى شوفيئيّة أصولية واستعلاء». (مجلة «مرايا التراث» - العدد الرابع - ربيع ٢٠١٦).

للتراث معانٍ مختلفة يتفرع عنها تعريفات مرفّقة. ويمكن تعريفه أنه «أَيُّ ما يرغب شخص في الحفاظ عليه أو جمعه». ويمكن وصف هذا المعنى كشيء يريد المرء الاحتفاظ به أو الحفاظ عليه. ويحدد أكثر الباحثين العالميين خمسة جوانب موضوعية للتراث:

١. مرادفُ أيّ أثر للبقاء المادي للماضي.
٢. فكرة الذكريات الفردية والجماعية من منظور جوانب للماضي غير مادية عندما يُنظر إليها من الحاضر.
٣. كل إنتاج ثقافي وفني متراكم.
٤. البيئة الطبيعية.

٥. نشاط تجاري رئيسي، مثل صناعة التراث.

هذا التوسع في مفهوم التراث يتضح عند تحليل وثائق دولية رئيسة أنتجتها منظمات عالمية مثل «الإيكوموس» و«اليونسكو» لحماية التراث والحفاظ عليه توسيعاً نطاقاً التراث: من المعالم والمباني التاريخية إلى مجموعات المباني والمراكز الحضرية والريفية التاريخية والحدائق التاريخية والتراث غير المادي بما في ذلك البيئات والعوامل الاجتماعية ونسيجها.

حي تراثي بيروت بريشة نبيل سعد
(عضو جمعية «تراثنا بيروت»)



تطوير التراث

صحيحٌ أن معرفة جميع جوانب التراث مفيدة لفهم طابعه المعقد، لكنه عادةً لا يساعد في الحفاظ على مواقع التراث وإدارتها يوميًا. وهكذا يتم تطوير نماذج التراث للمساعدة على تحسين سياسات الحفظ والإدارة المناسبة، فضلاً عن أعمال الترويج وزيادة الوعي. وفي الوقت نفسه، ثبت أن مهمة تصنيف التراث صعبة لأن مفهوم التراث متعدد الأبعاد، ويمكن تصوُّره بطرق مختلفة داخل ثقافة واحدة وعبر الثقافات، إضافةً إلى أشكال رسمية وغير رسمية.

حاليًا تبرز فئتان رئيسيتان من التراث على المستوى الدولي: المادي وغير المادي. هكذا تَمَّ تصنيف التراث المادي في اتفاقية اليونسكو لعام ١٩٧٢ بشأن حماية التراث الثقافي والطبيعي العالمي إلى ثقافي وطبيعي، ولكل فئةٍ تقسيماتٍ فرعية. ولم يعد يُنظر إلى فئات التراث الثقافي والطبيعي على أنها منفصلة، بل تَمَّ دمجها في فئة «المناظر الطبيعية الثقافية» المشتملة على عنصر غير ملموس. ومن أجل دمج العناصر غير الملموسة، تم تعديل نطاق اتفاقية التراث العالمي لعام ١٩٧٢ وتوسيعه إلى مبادئ توجيهية تشغيلية لتشمل نواحي مختلفة مثل المسارات الثقافية، والمناظر الطبيعية الثقافية، والمواقع الترابطية والمواقع التذكارية، وجميعها مكونات غير مادية وجزء من أهمية الموقع.



«الحكواتي»: إحياء التراث الشعبي

لم يكن كافيًا توسيع نطاق اتفاقية عام ١٩٧٢ لتشمل عناصر غير ملموسة، لذا تَمَّ تطوير ميثاق دولي مختلف لضمان الحفاظ السليم على التراث غير المادي، فكان اعتماد اتفاقية اليونسكو لصون التراث الثقافي غير المادي في تشرين الأول ٢٠٠٣، بدأ تنفيذها في نيسان ٢٠٠٦. وتُعرَّف

الاتفاقية التراث الثقافي غير المادي بأنه الممارسات والتمثيلات وأشكال التعبير والمعرفة والمهارات، فضلاً عن الأدوات والأشياء والمصنوعات اليدوية والمساحات الثقافية المرتبطة بها، مما تعترف به المجتمعات والجماعات، وفي بعض الحالات: الأفراد، كجزء من تراثهم الثقافي (اليونسكو ٢٠٠٣، المادة ٢).

لكي يُطلق اسمُ تراث على عنصر، يجب أن يمر في مراحل مميزة، تكوينه والاعتراف به وتخصيصه وتفسيره وفقدانه. ومن العناصر التي تصبح تراثاً، وربما أكثرها شيوعاً: التقادم، والبقاء، ونُدرة القيمة، والإبداع الفني، والارتباط. ومع مرور الوقت والتقدم التكنولوجي، تصبح بعض الأشياء قديمة فلا تعود مستخدمة، لكنها تمثل للبعض قيمة خاصة: بابور الكاز، ماكينة خياطة قديمة، مطحنة بن يدوية وأغراض يومية عالقة في ذاكرة الطفولة. ولا تزال في الاستخدام عناصر أخرى لكن عمرها المحض وندرتهما يجعلانها تراثاً، كالأماكن الدينية القديمة (مساجد العمري الكبير والأمير عساف والأمير منذر) والكنائس القديمة (التي لم تزل صامدة في وسط بيروت). ويمكن إدراج المخطوطات القديمة في هذا التصنيف. فالإبداع الفني البشري سبيل إنتاج للتراث مثل جمع الأعمال الفنية والموسيقى والأدب والحفاظ عليها. وتصبح عناصر أخرى تراثاً لارتباطها بالناس أو الأحداث، كمبنى بركات في محلة السوديكو، وبيت الاستقلال في القنطاري، ومتحف سرسق في الرميل، ومدرسة المعلم بطرس البستاني في زقاق البلاط، وسواها.



المعالم الدينية متجانبة في وسط بيروت التجاري

الاعتراف بالتراث

والأهم في عملية تكوين التراث: التعرفُ إليه فتصبح عناصره تراثاً إذا تم الاعتراف بها على هذا النحو. فليس تراثاً كل قديم أو نادر. ويتم التعرف على عناصر معينة تُعتَبَر تراثاً لأسباب عدة، مثل البحث الشامل حول عنصر معين، ليؤدي البحث إلى أسباب مقنعة تجعل للعنصر أهمية ويستحق الحفاظ عليه. والتراث، في الحياة اليومية، هو بناء العقل الذي لا يمكن دائماً حسابه بممارسة الآثار أو الحفظ. ومعظم التراث – الذي يعني أكثر من غيره للأفراد – لن يخضع للتسجيل أو الحفظ ولا الاعتراف به تراثاً. ومن المظاهر الأخرى: حين يُحدث التراث تحولاً في الهيكل السياسي أو الإداري، أو تظهر العناصر المنسية مرة أخرى، وذلك أساساً لتبرير أو دعم نظام قائم. فغالباً ما يكون تحديد التراث والاعتراف عملاً سياسياً لأن القرار بشأن ما يُعتَبَر جديراً بالحماية والحفظ، تتخذه عموماً سلطات الدولة على المستوى الوطني، وعلى المستوى الدولي تتخذه منظمات حكومية دولية تضم الدول الأعضاء.

المواثيق الدولية والقوانين المحلية

أ) المواثيق الدولية

لفهم المحافظة على التراث المعماري التاريخي وحمايته، مواثيق واتفاقات دولية عدة أبرزها توصيات اليونسكو لعام ١٩٧٦ حول حماية المناطق التاريخية The 1976 UNESCO recommendation concerning the safeguarding and contemporary role of historic areas وإتفاقية حماية التراث العالمي الثقافي والطبيعي ١٩٧٢ وميثاق بورا Burra Charter Australia ICOMOS ١٩٧٩ وميثاق صيانة المدن التاريخية والمناطق الحضرية «ميثاق واشنطن» ١٩٨٧ ووثيقة مبادئ الحفاظ على المنشآت الخشبية ١٩٩٩ لإيكوموس، وميثاق إيكوموس حول مبادئ التحليل والصيانة والترميم المعماري للتراث المعماري ٢٠٠٣. ولكن يبقى أهمها الميثاق الدولي لترميم وصيانة المواقع والنصب التاريخية سنة ١٩٦٤ المعروف بـ «ميثاق البندقية» Venice Charter الذي تبني ثم طوّر القرارات الصادرة عن الاجتماع الدولي في أثينا عام ١٩٣١، بمشاركة معماريين ومتخصصين في صيانة المباني التاريخية. ويعتبر هذا الميثاق من أهم المواثيق الدولية في حقل ترميم وصيانة الآثار، والأساس الذي انبثقت منه المواثيق اللاحقة. وهنا أبرز مواد:

١. مفهوم المَعْلَم التاريخي لا يشمل العمل المعماري وحده بل معه النسيج الحضري أو الريفي المحيط به دليلاً على حضارة معينة أو تطور مهم أو حدث تاريخي.
٢. ضرورة الاستعانة بجميع العلوم والتقنيات التي تُسهم في دراسة التراث المعماري وحمايته.
٣. الحفاظ على المعالم وترميمها لإنقاذ العمل الفني والدلائل التاريخية.
٤. من أبرز إجراءات حفظ المعالم التاريخية: تنفيذ الصيانة باستمرار.
٥. توظيف المبنى التاريخي بما يفيد المجتمع، أمرٌ يساعد في الحفاظ عليه، دون إحداث تغيير في تخطيطه أو زخارفه.
٦. ضرورة المحافظة على النسيج/المحيط القديم كما هو، فلا يُسَمَحُ بالبناء ولا الهدم ولا التغيير فيه، كي لا تتغير العلاقة بين الكتلة واللون فيه.
٧. لا يسمح بنقل المبنى أو جزء منه من مكانه إلا إذا اقتضت المحافظة عليه، أو لاهتمام ومصلحة وطنية ودولية نتيجة أهمية فائقة. فالمبنى التاريخي جزء من محيطه وشاهدٌ على تاريخه ولا يمكن فصله عنه.
٨. يُسَمَحُ بنقل التماثيل واللوحات والزخارف من مكانها الأصلي في المبنى إن كانت عملية النقل وسيلة وحيدة للمحافظة عليها، وإلا فلا يتم تحريكها من مكانها.
٩. عملية الترميم عالية التخصص، تهدف إلى الحفاظ والكشف عن قيمة الأثر الجمالية والتاريخية، وتقوم على أساس احترام المادة الأصلية والوثائق الحقيقية. وتتوقف أعمال الترميم عندما يبدأ التخمين. فأَيُّ عمل إضافي لا غنى عنه، يجب أن يتميز عن التركيب المعماري ويحمل طابعاً حديثاً. وأي أعمال ترميم يجب أن يسبقها دراسات تاريخية وأثرية للمبنى.
١٠. عندما يتبين أن التقنيات التقليدية غير مجدية أو غير ملائمة، تتم تقوية المبنى باستخدام تقنيات حديثة للصيانة والبناء تكون تَبَتَّتْ كفاءتها بالأدلة العلمية وبالتجربة.
١١. يجب احترام المساهمات الصحيحة العائدة إلى الفترات التاريخية لبناء الأثر، فوحدة الطراز ليست الهدف من الترميم. وعندما يضم المبنى أعمالاً متداخلة من فترات مختلفة، فلا يُسَمَحُ

بالكشف عن الحالة السابقة إلا ضمن ظروف استثنائية شرطاً أن ما سيُزال ذو أهمية أقل من الجزء الذي سيتم استظهاره من حيث قيمته التاريخية أو الأثرية أو الجمالية، وأن تكون حالته من الحفظ جيدة كفايةً لتبرير هذا الفعل. فعملية تقييم العناصر التي سيتم تحطيمها واتخاذ القرار فيها لا يمكن إسنادها فقط إلى الشخص المكلف بالعمل.

١٢. استكمالُ الأجزاء المفقودة يجب أن يدمج بانسجام مع الكل، وتوازياً يجب تمييزها عن الأجزاء الأصلية كي لا تُزيّف الأدلة التاريخية والفنية.

١٣. لا يُسمَح بإجراء إضافات إلا إذا كانت لا تحط أو تنتقص من الأجزاء الأخرى المهمة في المبنى، أو تكوينه التقليدي، أو توازن مكوناته، أو علاقته ببيئته المحيطة.

١٤. ضرورة أن تكون لمواقع الآثار عناية خاصة حفاظاً على سلامتها وتأكيداً من نظافتها وتقديمها كما يليق.

١٥. يجب استبعاد أعمال إعادة البناء «بالبداهة»، إلا ما يُعرَف في حالة «الترميم بالمشابهة»، أي إعادة تجميع/تركيب الأجزاء المبعثرة، على أن تكون المواد المستخدمة سهلة التمييز، وبأقل ما يمكن وبما يضمن الحفاظ على الأثر ويعيد له شكله الأصلي.

١٦. يجب إجراء توثيق دقيق في شكل تقارير نقدية وتحليلية مصحوبة بالصور والرسوم لجميع أعمال الترميم والصيانة والتنقيب، وأن يتضمن التقرير مراحل وخطوات التنظيف والتقوية وإعادة التنظيم والتكامل، إضافة إلى ملامح رسمية وتقنية يكون تمّ تحديدها أثناء العمل، مع ضرورة أرشفة التقارير ونشرها.

(ب) القوانين والتشريعات المحلية والتوصيات شبه الرسمية

١. قانون الآثار: القرار ١٦٦/ل ر تاريخ ٧ تشرين الثاني ١٩٣٣، المعروف بـ «نظام الآثار القديمة»، ولا تزال القوانين الصادرة بهذا الشأن خاضعةً لأحكامه حتى اليوم.

٢. قرار تجميد الهدم ١٩٩٥ بإمضاء وزير الثقافة ميشال إدّه، وبموجبه تقرر تجميد هدم ١٠١٦ من ٥٢٠ منزلاً قديماً في بيروت أتبعه في ٣ تموز ١٩٩٦ بكتاب إلى محافظ بيروت نقولا سابا لتجميد هدم المباني المذكورة، اعتماداً على دراسة «جمعية حماية المواقع والبيوت الأثرية في لبنان» APSAD.

٣. دراسات ١٩٩٧ قامت بها هيئات حكومية تبين من خلالها أن عدد المنازل المشار إليها في قرار ١٩٩٥ انخفض إلى ٥٢٠ منزلاً، وفي أقل من عام انخفض مجدداً إلى ٢٠٩ مبانٍ أثرية أدرجت على قائمة الجرد العام للمباني المحمية في مديرية الآثار التابعة لوزارة الثقافة.

٤. قرارات مجلس الوزراء: القرار رقم ٢٢ تاريخ ٥ شباط ١٩٩٨ تبعه قرار رقم ٧ تاريخ ٢٠ أيار ١٩٩٨ بتكليف مجلس الإنماء والإعمار إعداد دراسة شاملة للمباني ذات الطابع التراثي في نطاق العاصمة مع العقارات القديمة المقترحة للهدم. ثم أتبع ذلك سنة ٢٠١٠ بقرار رقم ٥٧ لتجميد المباني التراثية.

٥. إقتراح قانون «التراث الثقافي الوطني» سنة ١٩٩٩ تقدم به الوزير الدكتور أمين البزري مقترحاً فيه تشكيل مجلس أعلى للتراث وإنشاء صندوق مستقل لهذا الغرض.

٦. مشروع قانون تقدم به الوزير الدكتور طارق متري في تموز ٢٠٠٧ بعنوان «قانون حماية المباني والمواقع التراثية» (يعتبر استكمالاً لمشاريع قوانين مماثلة تقدم بها الوزيران غسان سلامة عام ٢٠٠١ وغازي العريضي عام ٢٠٠٢)، وافق عليه مجلس الوزراء في الثامن والعشرين من الشهر نفسه (تموز).

نقطتان للحل

لم أذكر أعلاه التفاصيل وشرح القوانين والقرارات والإجراءات المحلية، فلا داع لذلك طالما لن يلتزم بها أكثر «الزعماء» الأشاوس والسياسيين العباقر ورؤوس الأموال المتسلطة، لذلك: «لا رأي لمن لا يُطاع»!

إذاً ما الحل؟ إنه بسيط من نقطتين جوهريتين: قانون واضح لمسح المباني التراثية وإدراجها نهائياً في لائحة الجرد العام، ومنع الدولة تعديلات على تلك المباني يقوم بها البعض في الليالي المظلمة، ودفع الدولة تعويضات عادلة لمالكي العقارات. والأهم هنا: أن يهب الله، سبحانه وتعالى، طبقة سياسية نزيهة للبنان، مثقفة تؤثّر المصلحة العامة على المصالح الشخصية الدنيئة.

وتذكيراً: في ٥ حزيران ١٩٤٦ وافقت وزارة الخارجية الفرنسية على إنشاء مؤسسة الآثار في بيروت لدى قصر بيهم (المبني نحو سنة ١٨٥٠) في شارع جورج بيكو - منطقة ميناء الحصن، وعيّنت الوزارة عالم الآثار

والمؤرخ هنري سيرينغ Henri Seyrig مديراً له، واستمر في هذا المنصب لأكثر من ٢٠ سنة.

التوثيق في جمعية «تراثنا بيروت»

في المادة السادسة عشرة من «ميثاق البندقية» حول التوثيق (وهو من صلب أولوياتنا في جمعية «تراثنا بيروت») أن التوثيق سجل مفصل في صورة تقرير حول معلومات شاملة عن الأثر، كتابياً أو رسوماً أو خرائط أو صوراً. وتوثيق ترميم المعالم التاريخية والتراثية المعمارية عملية متواصلة تبدأ قبل تنفيذ الترميم وفي أثناء العمل لحين الانتهاء منه، وتتواصل طيلة بقاء الأثر أو المبنى أثناء عملية الفحص والمراقبة الدورية. وقد يكون هذا التوثيق أيضاً بأي طريقة حديثة تضمن توثيق حالة المبنى وجميع مراحل وأنواع التدخل التي حصلت، بلوغاً إلى تقرير دقيق مفصل عن المبنى وما حصل له.

ونحن في الجمعية نقوم بذلك تعاوناً مع عضو الجمعية المهندس المرمم الدكتور جاد حمود وفريقه، وذلك عادةً في أربع مراحل:

١. التوثيق الكتابي: وهو وصف نصي تفصيلي دقيق لتاريخ المبنى ومكوناته الإنشائية ومواد البناء التقليدية المستخدمة في البناء، إضافة إلى العناصر الزخرفية والمعمارية المختلفة. ويتضمن كذلك توثيقاً ووصفاً لجميع خطوات الترميم والمواد المستخدمة لإنجاز هذا العمل، ووصف كيفية إنجاز أعمال الترميم. ويراعى أثناء التوثيق الكتابي استخدام مصطلحات موحدة متفق عليها مع الكتابة بأسلوب نحوي صحيح سهل الفهم.

٢. الرفع المعماري: يبدأ الرفع المعماري والرسم الهندسي للمبنى بعد الفحص المبدئي، بوضع رسم مبدئي بمقاسات دقيقة وباستخدام أدوات القياس المختلفة، وتنقسم عملية الرسم الهندسي للمبنى إلى عمل ميداني برفع المقاسات وإعداد رسوم مبدئية، وعمل مكتبي يتم فيه تحويل الرسوم السابقة إلى رسوم نهائية تؤتق في ذاكرة الكمبيوتر. ويراعى أثناء الرفع المعماري إظهار علاقة المبنى بمحيطه، كما يتضمن الرسم والرفع المعماري مخططاً أفقياً عاماً للمبنى ورسوماً للواجهات الخارجية والداخلية وقطاعات رأسية لجدرانه، مع وضع رسم دقيق لجميع العناصر المعمارية والزخرفية من أعمدة وأبواب ونوافذ وزخارف ورسوم، وإظهار جميع مظاهر التلف الموجودة عليها. وأثناء إعداد الرسوم يراعى وجود مفاتيح تبين العناصر المختلفة وتبين أنواع مظاهر التلف. إذًا:



الرفع المعماري في تصوّر لبيت فيروز في زقاق البلاط
(إعداد د. أليز أبي راشد، جمعية «تراثا بيروت»)

التوثيق المعماري عملية متواصلة باستمرار عملية التوثيق الكاملة في جميع مراحل الترميم أو التدخلات المختلفة، ثم تجهيز رسوم نهائية بعد الانتهاء من جميع أعمال الترميم في المبنى توضح أشكال التدخل وأماكنه. ٣. التصوير: ينقسم التصوير إلى فوتوغرافي وفيديو وفوتوغراممري. وأفضل التوثيق وأبسطه والأكثر شيوعاً في التوثيق: التصوير الفوتوغرافي

سواءً للمباني التراثية القائمة (مأهولة أو مهجورة)، أو للتي هي إبان الترميم لجميع مراحل التدخل. ويشمل التصوير توثيق جميع واجهات المبنى وعناصره المختلفة وتوثيق جميع المشاكل ومظاهر التلف مع مراعاة وجود مقياس يحدد حجم مكونات الصورة وكذلك مراعاة الترميز لمعرفة مكان التقاط الصورة. والتوثيق بالتصوير يشمل جميع مراحل الترميم وأشكال التدخلات



التوثيق المرئي للمعالم التاريخية

المختلفة. وهنا أنوّه بما بذله فريق من أعضاء وأصدقاء جمعية «تراثنا بيروت» من جهد كبير، وأخص بالشكر السيدة إنعام خالد منسقة الأنشطة في الجمعية.

٤. كتابة التقرير: هي المرحلة الأخيرة في عملية التوثيق ونتاجها النهائي، لإعداد تقرير متكامل ونهائي عن جميع مراحل الدراسة والتوثيق والترميم، مرفقة به الرسوم والصور ودراسات سابقة تمت عن الموقع، منها مثلاً دراسة تقييمية قدمتها جمعيتنا لمديرية الآثار بطلب منها بعد تفجير مرفأ بيروت الإجرامي في ٤ آب ٢٠٢٠ قام بها فريق من نحو ٤٠ متطوعاً ومنسباً للجمعية بإشراف الدكتور جاد حمود.

لماذا نحافظ على التراث؟

كتب الصديق الأستاذ هنري زغيب في افتتاحية العدد الأول من هذه المجلة («مرايا التراث»): «الذاكرة... نعم. فيا نَعَسْ بليّ بدون ذاكرةٍ لأنه بلدٌ يعيش ولا يحيا. ويا نَعَسْ بليّ لا يحفظُ ذاكرته لأنه لا يُورثُ تراثاً إبداعياً ينقله من الذاكرة إلى المخطوطة فالوثيقة. لذا يبقى بلداً ذا ماضٍ سقيم وحاضرٍ عديم ومستقبلٍ عقيم». (العدد الأول - خريف ٢٠١٤).

ونحن في جمعية «تراثنا بيروت» نسعى إلى المحافظة على التراث لدوافع عدة، منها:

- التراث من أهم الوسائل للحفاظ على هويتنا بالإضاءة على القيم وإيصالها لأكبر مساحة من المجتمع.
- التراث واقع ثقافي يمهّد للمواطنين من مختلف المجموعات مهارات واختصاصات أكاديمية ليكونوا واجهة موحدة لقضية نبيلة.
- التراث المادي جاذب سياحي يؤمّن تمويلاً خارجياً للاقتصاد المحلي فيحفّز النمو الاقتصادي والازدهار. وخسارة كبرى للاقتصاد الوطني كل تعد على التراث المادي، جهلاً أو إهمالاً أو لغايات سياسية مريبة.
- المباني والمواقع التراثية شواهد أسلافنا وانعكاس ماضينا ومصدر معلوماتٍ أساسيٍّ لتتبع تطور مجتمعا الحضاري، بدليل صمود مواقع تراثية عدة أمام اختبار الزمن. ولكن هذه المباني تتطلب صيانة وترميمًا دؤوباً، تماماً كصحة الإنسان التي تتطلب احتياطات وفحوصاً باستمرار.
- الحفاظ على التراث شكل من أشكال التنمية السكنية. والحفاظ عليه يقلّل من الاعتماد على مواد جديدة ومواد بناء ملوثة وتصنيع كثيف الطاقة.

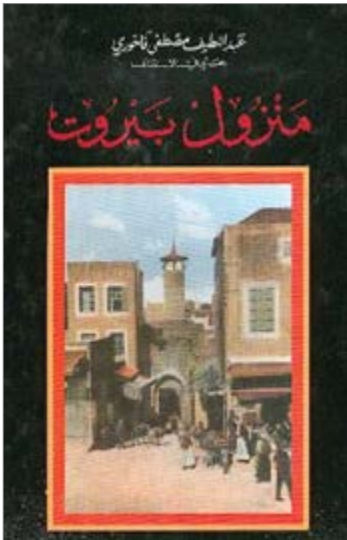
- المعالم التراثية عنوان جمال وفخر في المجتمع، تتعزز بها الهوية الثقافية بين السكان من مختلف الأجيال، والمحافظة على النسيج الاجتماعي يشكل أساساً هذه الهوية.
- في الحفاظ على تراثنا الثقافي يمكننا التواصل مع سكان العالم لمشاركة تراثهم الثقافي والتاريخي، ما يعود بالمنفعة الثقافية والاقتصادية على بلدنا عبر المؤسسات الكبرى التي تعنى بالتراث العالمي.

التراث والمواطنة

علاقة المواطن بموروثه المكاني (حيث يعيش) ظاهرة ليست وليدة الحداثة والتطور العمراني بل هي مغلقة في القدم. فعلاقة الإنسان بالبناء كانت موضوع مناقشات في مجالس الفلاسفة اليونان، وصلتنا منها مقولة أبقراط أن «انتقال الناس من منطقة إلى أخرى لم يكن في صالح الفرد صحياً ونفسياً، وربما أدى إلى تدميره. وتم ربط هذه الظاهرة بعدم تحمل الإنسان بيئته الجديدة، عبر ما يراه ببصره أو عبر مأكله ومشربه وطريقة عيشه». ويبقى ارتباط الفرد ببيئته المكانية من أهم عوامل تشكل مفهوم المواطنة العام. وهوذا المهندس الأميركي ديفيد لينش David Lynch (صاحب «مؤسسة لينش للتصميم الهندسي» أسسها سنة ٢٠١٣)

يلاحظ أن «الخرائط الذهنية التي ينشئها الناس شخصية لكل فرد، وثمة عناصر لكل صورة عقلية نادراً ما يتم توصيلها بأشخاص آخرين أو ربما لا يتم توصيلها أبداً. الذكريات أو الروابط العاطفية أو التاريخ الشخصي تخلق معالم عاطفية خاصة قد لا تتم مشاركتها مع أشخاص آخرين».

من هنا أهمية الروابط العائلية في المنزل التقليدي اللبناني الذي كان يتسم بالفردية والجماعية في آن معاً. وهو هذا ما أشار إليه المؤرخ عبد اللطيف فاخوري في كتابه «منزول بيروت»: «... الفردية داخل البيت تحفظ حرمة وخصوصية ساكنيه،



غلاف «منزول بيروت»

والجماعية خارجه، من حيث الانسجام مع الأبنية المجاورة والملاصقة (...). وتُمكن ملاحظة التناسق بين العائلة والبيت والمدينة: المدينة يحدها سور تقفل أبوابه مساءً، والبيت مقفل على الخارج لا ينبي مظهره عن داخله. والعائلة تتوزع الغرف وتشتبك في المنافع العامة له بعيداً عن أعين الغرباء، يتحرك أفرادها ويتنقلون ويمشون فيه بكل راحة وطمأنينة. إذا أمطرت جلسوا تحت القسم المسقوف من أرض الدار، الفسحة السماوية، وإذا اعتدل الحر جلسوا حول البُرْكة وسط الفسحة المذكورة. وإذا اشتد الحر صيفاً صعدوا إلى العليات وسهروا وتمتعوا بالهواء الغربي الذي وصفوه بالحنون وغنوا له: «يا رب يدور غربي ت يرجع حبيب قلبي». ويمكن القول إن المواطنة المتجذرة في الموروث المادي والاجتماعي في لبنان هي بخير رغم الظروف القاسية التي يمر بها الوطن. دليلنا على ذلك هذا «الحنين» البناء الذي شاهدناه في جمعية «تراثا بيروت» إبان عملنا الميداني بعد تفجير مرفأ بيروت، إذ لاحظنا إصرار سكان المناطق المتضررة في المحافظة على النسيج الاجتماعي، وصدّ الأهالي الرائع مصطادين في الماء العكر أرادوا استغلال الطرف المؤلم لشراء العقارات، خصوصاً في محلّتي الجميزة ومار مخايل.

مسؤولية جيل الشباب

على جيل الشباب أن يدرك ضرورة الحفاظ على التراث الثقافي أمراً يفخر به. فالجيل الحالي يتمسك بمجتمعه الراهن ونسيجه، لكنّ عليه مسؤولية نقل هذه الأمانة إلى الجيل الذي بعده كي تستمر في الازدهار لأجيال تالية. وهذه غايتنا الأساسية في جمعية «تراثا بيروت» التي أفتخر بتأسيسها ورئاستها. ولننتبه إلى أن الحفاظ على التنوع الثقافي لا يساعد فقط من نحمي تقاليدهم بل يحافظ أيضاً على أساليب تفكير يمكننا أن نتعلم منها. لذا أختتم بما به بدأت دراستي، لأهميته في نظرنا كجمعية تهتم بالتراث في جميع جوانبه: «التراث مادة هامة تستحق أن تكون ضمن مناهج المواد التعليمية في مدارس الناشئة في لبنان لترسيخ جذور المواطنة الحقّة في نفوسهم فيكون لديهم عتاد يواجهون به من يتآمر على هويتهم ومحيطهم وتاريخهم».

«الهدى» النيويوركية: منارة لبنانية في أميركا

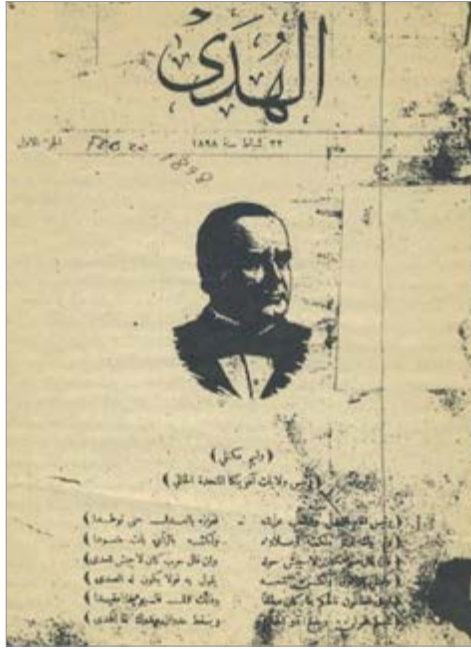
د. ليليان قربان عقل

كثيرة هي الكتب والدراسات التي عالجت حضور جريدة «الهدى» في نيويورك (٢٢ شباط ١٨٩٨ – ٨ أيار ١٩٩٢)، لما كان لها من دور أول في إعلاء صوت لبنان في المهجر.

هنا جزء خاص بـ «مرايا التراث» من دراسة عنها وضعتها الباحثة ليليان قربان عقل، وهي جزء من أطروحة دكتوراه بإشراف الدكتور جورج كلاس، موضوعها: «القضايا اللبنانية في الصحافة المهجرية من خلال جريدتي «الهدى» و«مرآة الغرب» بين الدستوريين (العثماني ١٩٠٨ واللبناني ١٩٢٦)، نالت عليها الكاتبة (في ٢٨ حزيران ٢٠٢٢) شهادة الدكتوراه في علوم الإعلام والاتصال بتقدير «جيد جداً» من المعهد العالي للدكتوراه لدى كلية الآداب والعلوم الإنسانية في الجامعة اللبنانية.

«صحيفة سياسية انتقادية علمية أدبية صناعية تجارية تصدر مرّة في كلّ أسبوع و مرّة في غرة كلّ شهر لمديرها ورئيس تحريرها الأستاذ نعم مكرزل». بهذه العبارة، في ٢٢ شباط ١٨٩٨، صدر في فيلادلفيا (ولاية بنسلفانيا الأميركية) العدد الأول من جريدة «الهدى»، لصاحبها نعم مكرزل^١، أرادها تحمل قضايا الوطن، والدّفاع عن حرية لبنان وحقوقه المشروعة، وإيقاظ الوعي الوطني عند المهاجرين وتوحيد صفوفهم. صدرت «الهدى» أولاً أسبوعية بثماني صفحات، تصدرت صفحاتها الأولى

(١) صحفي وكاتب سياسي لبناني (١٨٦٣-١٩٣٢). ولد في الفريكة، تلقى فيها مبادئ القراءة والكتابة تحت السنيديانة، انتقل إلى مدرسة الحكمة (بيروت). سافر إلى القاهرة سنة ١٨٨٧ هرباً من ضغط الحكام وخنق الحرية في لبنان. سنة ١٨٩٠ هاجر إلى الولايات المتحدة الأميركية. سنة ١٨٩٤ أنشأ في فيلادلفيا صحيفة «العصر». لم تستمر طويلاً، فأنشأ في ٢٢ شباط ١٨٩٨ جريدة «الهدى».



العدد الأول من «الهدى» (فيلادلفيا - ٢٢ شباط ١٨٩٨)

صورة رئيس الولايات المتحدة الأميركية وليم مكنتلي، وتحتها ستة أبيات من الشعر في مدحه. منذ تموز ١٩٠٠ أصبحت نصف أسبوعية (الأربعاء والسبت)، وسنة ١٩٠٢ انتقل مكرزل بها إلى نيويورك وأخذت تصدر يومية حتى ١٩٦٣ حين تراجع صدورها إلى ثلاث مرّات في الأسبوع ثم نصف أسبوعيّة سنة ١٩٦٥.

حمل نغوم مكرزل من خلال جريدة «الهدى» قضايا الوطن الثقافيّة والإجتماعيّة والإقتصاديّة. وذكرت ابنة أخيه ماري مكرزل (في كتاب تاريخ جريدة «الهدى» والجوالي اللبنانية في أميركا (ص ١٥-١٦): «كانت



«الهدى» يقظة ثوريّة حرّكتها همّم المهاجرين، وفتحت أمام أعينهم آفاقاً جميلة ما كانوا ليحلموا بها قبل ذلك».

غلاف الكتاب الصادر عند بلوغ «الهدى» ٧٠ عاماً

منذ الافتتاحية الأولى

وبالفعل، منذ افتتاحية العدد الأول، شرح نعوم مكرزل غايته من إصدار «الهدى»، مؤجّجاً حس الوطنيّة والحنين إلى لبنان. وكان أوائل المهاجرين اللبنانيين يأملون كسب المال في المهجر والعودة إلى الوطن للعيش برخاء. وحين ركز مكرزل في افتتاحيّته على التعلّق بلبنان، تحركت عواطف المهاجرين، وراح في جميع افتتاحياته ومقالاته اللاحقة يواصل تركيزه على ذلك. وهو أشار في افتتاحيته الأولى إلى أنه لم يمتن الصحافة ويتحمّل مشقّاتها إلاّ مدفوعاً بالوطنية النبيلة التي لم تعرف حدوداً. كان يعلم أنّ الصحافة هي الطريق المثلى لخدمة لبنان وإيقاظ الوعي الوطنيّ بين أبنائه المهاجرين، حتى إذا عادوا إلى الوطن لبنان كانت مشاعرهم الوطنية ومداركهم واضحة، وإن فضّلوا البقاء في المهجر كانوا كتلة واحدة مترابطة تعمل لرفعة لبنان وكان فترتئذٍ يواجه مشاكل سياسيّة وإجتماعيّة واقتصاديّة متعدّدة.

من افتتاحية مكرزل الأولى: «... قد يتساءل الكثيرون عمّا إذا كانت سياسة هذه الجريدة عثمانية أو أوروبية أو إنكليزية أو فرنسيّة. وجوابنا على ذلك أنّنا لسنا على غير سياسة الإصلاح لوطننا لبنان الذي نفاخر



نعوم مكرزل (١٨٦٣-١٩٣٢)
مؤسس «الهدى» سنة ١٨٩٨

به وبمن فيه من رجال العلم والفضل والأدب والسياسة، دون تزلّف إلى من ترجّى منهم المنافع، وتصدر الموانع عنهم، لأنّنا لا نخدم الأفراد بل الجمهور. ومن كان الصدق رائده فسيكون النصر حليفه». وكان ذلك دستوراً سار عليه مكرزل بثبات طيلة حياته، وتمسّك به بعده أخوه سلّوم فابنته ماري.

كانت «الهدى» منبر الكثيرين من أدباء المهجر. «وكان مهاجرون لا يجيدون العربية يشتركون فيها ويطلبون من أقارب لهم وأصدقاء يجيدون العربية أن يقرأوها لهم.» (ملكي، (١٩٩٨)، ص ٤٨).

النهضة اللبنانية: مليون دولار

أنشأ نعوم مكرزل جمعيّة «الاتّحاد اللبناني» لكنها تعطلت لتحلّ مكانها في ١٩ آب ١٩١١ جمعيّة «النهضة اللبنانية» التي شقّت طريقها إلى عالم

السّياسة، حتى إذا جاءت دعاة إلى حضور المؤتمر العربي الأول في باريس غادر نعوم مكرزل نيويورك إلى باريس في ٨ حزيران ١٩١٣. وبعد عودته إلى نيويورك أخذ يطالب بإعادة لواء لبنان، وتحديد إلى ما كان في عهد أمرائه، وردّ الجمارك والبرق والبريد إليه، وتعيين قناصل للبنان في المهجر.

في الحرب العالميّة الأولى تمادى في مهاجمة الأتراك فمُنعت جريدته من دخول السلطنة العثمانيّة، وجهدَ لجمع المساعدات الماليّة للبنانيين، وقُدّر ما جمعه آنذاك بواسطة «الهدى» بنحو مليون دولار. ومع نهاية الحرب، قرر الحلفاء مؤتمر السّلام فتوجّه مكرزل مجدداً إلى باريس في شباط ١٩١٩، وتصدّرت افتتاحيته الصفحة الأولى من «الهدى» عدد ١٧ آذار ١٩١٩: «تحقّقت أمني لبنان: وافق الحلفاء على مطالب وفده الرئيسيّة». وجاءت برقيّة أخرى في العدد اللاحق عنوانها: «صادقت فرنسا على قانون النهضة اللبنانيّة، وستمنح لبنان الاستقلال تحت رعايتها».

استقلال لبنان



نعوم مكرزل (الثاني من اليمين) في الوفد اللبناني إلى باريس وإلى يساره رئيس الوفد داود عمون

هكذا نعوم مكرزل، في رحلته إلى باريس، حمل أمني المهاجرين إلى مؤتمر السّلام، فالتقى البطريرك الحويّك واتّفقت تطلعاته مع أمنيته، وعمل مع الوفد اللبناني لاستقلال لبنان الكبير بإشراف فرنسا، واقترح

العَلَم اللبناني في شكله الحالي وقلبه الأرز. (مكرزل، (١٩٣٢)، ص ١٩٧). كانت «الهدى» تدعي أنها ليست طائفية، إنما ظهرت صبغتها المارونية، وبدا أن وجهها ليس لبنانياً صرفاً بل تكشف ميولها الفرنسية.

سارت «الهدى»، منذ عدها الأول، وفق خط مؤسسها في القضايا الاقتصادية والثقافية والاجتماعية، منذ نشأتها حتى إعلان دولة لبنان الكبير في أول أيلول ١٩٢٠. وظل مكرزل يحمل قضايا لبنان وهمومه، فعرف بعناده وإصراره في الدفاع عن حقوق المهاجرين اللبنانيين، ومحاربة الاستبداد والمطالبة بالحرية. وهو حمل وجدانه اللبناني إلى المؤتمر العربي في باريس (١٩١٣) وجمع التبرعات لتحقيق الدعم الاقتصادي في الأزمات، وظل على شغفه الكبير في حب لبنان والدفاع عنه.

في ١٨ آذار ١٩٣٢ توجه نعيم إلى باريس من جديد، وصدرت «الهدى» في ١٩ آذار بزاوية «الشؤون اللبنانية» وفيها: «أنا راكب البحر لشؤون لبنانية». وفي ٥ نيسان ١٩٣٢ توفي نعيم مكرزل في باريس، ونُقل رفاته إلى لبنان فرافقته «الهدى» في تغطية وقائع الجنازة التي كانت أشبه بمظاهرة وطنية.



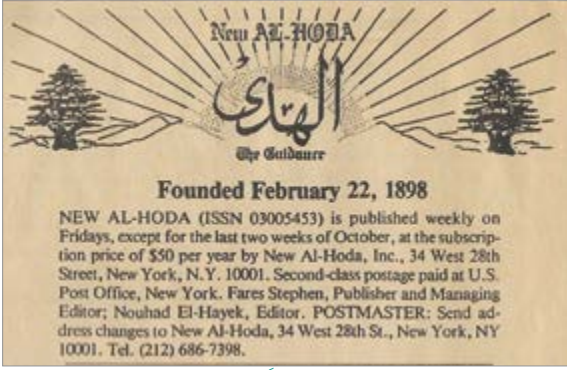
ماري مكرزل مُواصلة الإرث

سَلُوم يكمل المسيرة

بعد وفاة نعيم مكرزل انتقلت «الهدى» بالوراثة إلى زوجته الأميرة روز مكرزل، فأنشأت «دار الهدى» لمساعدتها على الإدارة، إنما وقعت في عجز مالي فأصبحت «الهدى» تصدر أسبوعياً. ثم اشتراها سَلُوم مكرزل (شقيق نعيم) من شركة «دار الهدى»، فأوقف مجلته «العالم السوري» (The Syrian World) لأن «الهدى»

استأثرت بوقته حتى وفاته سنة ١٩٥٢. وكان سَلُوم، كشقيقة نعيم، صوت اللبنانيين القوي، واعتمد «الهدى» منبراً لحمل قضايا لبنان. وكذلك فعلت ابنته ماري بعد وفاة والدها، فأصدرتها ثلاث مرّات في الأسبوع سنة ١٩٦٣ ثم مرتين في الأسبوع سنة ١٩٦٥.

ومع «الهدى» كانت تصدر بالإنكليزية جريدة The Lebanese American Journal وأخذ يتضاءل عدد قرّاء العربية فقررت بيعهما معاً، حتى اشتراها فارس اسطفان الذي سلّم رئاسة تحرير «الهدى»



فارس أسطفان (١٩٣٥-٢٠٢٢) ناشر «الهدى» «الهدى» في شعارها الجديد منذ تسلّمها فارس أسطفان من ١٩٧١ حتى عددها الأخير (٧ أيار ١٩٩٢)

سنة ١٩٨٤ إلى الشاعر هنري زغيب الذي كتب المقال الافتتاحي الأخير
لآخر عدد (٨ أيار ١٩٩٢) لتتوقّف «الهدى» عن الصدور بعد ٩٤ سنة من
النضال.



افتتاحية العدد الأخير كما كتبها هنري زغيب (السنة ٩٤ - العدد ١١ - نيويورك -
الجمعة ٨ أيار ١٩٩٢)

تطوّر الصدور

كانت «الهدى» تظهر بشكل مجلّة بحجم صغير، غلافها ملوّن، قبل أن
تتحوّل إلى شكل جريدة. أحضر نعوم مكرزل الحروف العربيّة من مصر
فبدأت مطبعة «الهدى» صغيرة بإمكانات ضئيلة، وكان نعوم مكرزل يحرّرها
بمفرده طيلة أربع سنوات، ويقوم بكل أعمالها من حسابات وإشراف على
الإخراج والطباعة. وكان صاحب «الهدى» نعوم مكرزل أوّل من اشترى
المنضدة العربيّة، وساهم في انتشارها، ما جعل من صحيفته صناعة
مميّزة راقية في صفحاتها، وعناوين الأخبار والمقالات، ونشر الصور،
فازداد إقبال القراء عليها. (مكرزل، (١٩٢٤)، ص ٩٨). وظلّت تُنصّد يدويّاً

حتى ١٩١٠ حين ابتكر سلّوم مكرزل تطبيق آلة اللينوتيب^٢ على الحروف العربيّة فكانت «الهدى» الأولى في استخدام اللينوتيب بين جميع الصحف العربيّة آنذاك.

مراحل تبدّل الشعار

- تطوّر شعار «الهدى» مع السنوات كالتالي:
- ١٩٠١: «الهدى» جريدة انتقاديّة تهذيبيّة تصدر يوم الأربعاء والسبت من كل أسبوع.
- ١٩١٣: «الهدى» جريدة للشعب ومعه ومنه.
- ١٩١٦: بدون كلام تعريفي، فكان اسمها وحده يكفي إذ أصبحت أهدافها معروفة.
- ١٩١٩: ظهر تغيير على اسم «الهدى» فظهر خلفه شعاع الشمس ومن بعيد طيف الأرزّة، كما للإشارة إلى بزوغ فجر الحرّيّة مع ولادة دولة لبنان الكبير عام ١٩٢٠.
- ١٩٥٢: بات الشعار «جريدة يوميّة جامعة، شعارها من الشعب وله ومعه» كأنها أعادت تذكير قرائها بأهدافها.
- ١٩٦٨: يتّضح في الشعار بزوغ الشمس (الحرّيّة) وتصبح الأرزّة واضحة أكثر وإلى جانبها عبارة «الهدى هي من الشعب وله ومعه. انت على هدى متى حوّلت على أفكار «الهدى». وكانت حينها تصدر يومي الثلاثاء والجمعة.
- عدد ٢٤ كانون الاول ١٩٧٦ هو آخر عدد في مكتبة الجامعة الأميركية – بيروت. بقي رسم الشعار على حاله لكنها أعلنت أنها «تصدر وقتياً» كل يوم جمعة، وإلى يسار الشعار: «الهدى الجديدة» (*The NEW AL-HODA*).
- هكذا حملت «الهدى» قضية إصلاح لبنان بتعزيز العربيّة بين المهاجرين ورفض الاستبداد والمطالبة بالحرّيّة ودعم منكوبي الحروب في الوطن من خلال جمع التبرّعات لهم.

(٢) اللينوتيب: أو «المنضدة السطرية»، آلة تنتج الحروف المعدنية للطباعة وتفرغ الحروف وحدات من خط واحد تسمى سطوراً.

مميّزاتها

تميّزت الهدى عن غيرها من صحف المهجر بترتيب موادها، وتقليدها الصحف الأميركية في صياغة العناوين المتدرّجة وفق المادّة بين المقالة والأخبار. وتفرّدت بنشر الصُور ورسوم «الكاريكاتور» المعبرة فكانت أكبر جريدة عربيّة في العالم آنذاك، بكبر حجم المادّة وغزارتها وأهميّة المواضيع والأخبار التي تنشرها، وكانت الوحيدة العربيّة اليوميّة المصوّرة في العالم، ما زاد عدد مشتركيها بمعدل ٦٠ مشتركاً جديداً كل شهر (جمعية النهضة اللبنانية، (١٩٣٦)، ص ٢٤)

أدخلت «الهدى» باباً جديداً على الصحافة العربيّة هو «طبيب العائلة»، يتفاعل مع مشاكل القراء الصحيّة عبر رسائلهم، ما شدّ أواصر العلاقة بين القارئ والصحيفة. وكانت «الهدى» تنشر ترجمات عن مواضيع مهمّة تصدر في أهم الصحف الأميركية آنذاك. كانت غنيّة بمواردها بأخبار لبنان وسوريا من مراسلين في تلك البلاد، فضلاً عن نقلها مقالات لأهم الكتاب ومنهم القس خليل عسّاف ويوسف زخم وعفيفة كرم وسلوم مركزل وجميل بطرس وسليم ابراهيم النجار الكاتب السياسي الذي كان مراسل جريدة «الهدى» في الأستانة، وكان يراقب عن كثب ما يضمّره الأتراك للبنان.

دور «الهدى» في الوطن والمهجر:

حرصت «الهدى» من خلال مندوبيها في الوطن إلى تعزيز الروابط بين لبنان المقيم ولبنان المغترب خصوصاً أن وسائل التواصل كانت صعبة في تلك الأيام. وكان همُّ صاحب «الهدى» نعوم مركزل:

(أ) أن يدافع عن حقوق اللبنانيين المقيمين والمغتربين كرّس صفحات في جريدته لهذه الغاية، لذلك حرص أن يكون لـ «الهدى» مندوبون في معظم المناطق اللبنانية.

(ب) كانت «الهدى» مرآة الجالية اللبنانية في الولايات المتحدة وتاريخها وما رافقها من نشوء وارتقاء ونضوج فكرة وتكوين الوطنيّة والإحساس بالقوميّة إنطلاقاً من تعزيز اللغة العربيّة في المهجر وتشجيع الأمّيين من المهاجرين إلى التعلّم وإتقان لغتهم الأم. كما دعمت المرأة في حملها القلم للمدافعة عن شؤونها النسائيّة.

من أبرز الأدوار التي قامت بها جريدة «الهدى»: جمع شمل المهاجرين تحت لواء العقيدة اللبنانية، فطالبت وسعت إلى المطالبة باستقلال لبنان عن الأتراك وإن كان في البداية بإشراف فرنسا وحصلت على ذلك.

دعمت «الهدى» قضايا اللبنانيين في أميركا خصوصاً حقهم في الحصول على الجنسية الأميركية والتي كانت مُنعت عنهم بحجة أنهم من غير الجنس الأبيض، وذلك إضافة إلى دعمها أيضاً المغتربين اللبنانيين عند طردهم من هاييتي واضطهادهم في ولايات أميركا الوسطى والولايات المتحدة الأميركية.



سلوم مكرزل (١٨٧٩-١٩٥٢)
مُواصل رسالة «الهدى» بعد شقيقه نعموم

العمل الإنساني

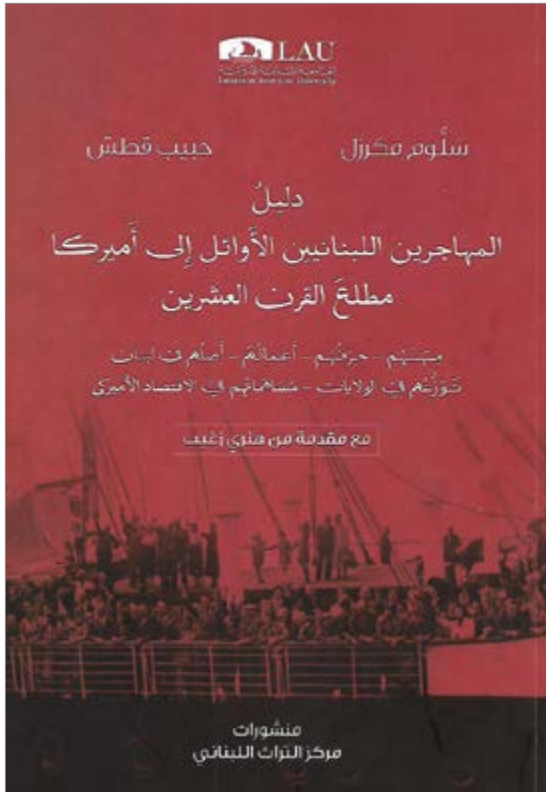
حرصت «الهدى» على إعانة منكوبي لبنان خصوصاً في الحرب العالمية الكبرى فجمعت مئات ألوف الدولارات وأرسلتها سرّاً لإغاثة اللبنانيين الصامدين في الوطن، كما جمعت ألوف الدولارات لإغاثة المتضررين من الثورة الدرزية التي حصلت في لبنان عام ١٩٢٦ إضافة إلى ما كانت ترسله كمساعدات للصليب الأحمر في لبنان. (مكرزل، (١٩٣٢)، ص ٩٩)

كانت لـ «الهدى» صبغة مارونيّة جعلتها عرضة للتساؤل عمّن يكون وراء تمويلها، وعن دورها، خصوصاً أن نعموم مكرزل كان يعاني خسارة في تجارته الأولى، ولم تُربحه جريدة «العصر» التي كان أسّسها ثمّ أقفلها فلم تدُم طويلاً قبل أن يُنشئ «الهدى» وقبل أن ينتهي من دراسة الطب، فمن أين رأسماله لإنشاء «الهدى» ولم تكن حققت انتشاراً واسعاً بعد، ما طرح إمكان أن يكون استعان بالفرنسيين أو بالكنيسة لتمويل مشروعه ودعمه. (ملكي، (١٩٩٨)، ص ٥٥). و«العبت صحيفة الهدى دوراً أساسياً في نشوء لبنان عبر دور صاحبها نعموم مكرزل أحد قادة الحركة التحرّرية ومن أبرز عرّابى لبنان الكبير». (Zeidan, (n.d), p. 272)

«انتشرت جريدة «الهدى» أكثر من أيّة جريدة عربيّة أخرى في الولايات المتحدة، فهي تصل الى ٨٠ بالمائة من محال السّوريين التجارية وتدخل كل بلد فيها سوريون، فالإعلان فيها يأتي بفوائد عظيمة». (مكرزل، وقطش، مع مقدمة من هنري زغيب، (٢٠١٧)، ص ٢٥).

المراجع

- ملكي، د. هنري. (١٩٩٨). «الصحافة المهجرية وعلاقتها بالأدب المهجري». بيروت. دار الشرق الأوسط للطبع والنشر. ص ١٩.
- مكرزل. نعوم. (١٩٣٢). مختارات الخواطر ١٨٦٤-١٩٣٢، نيويورك، مطبعة «الهدى»، ص ٩٩، ١٩٧.
- مكرزل. نعوم. (١٩٢٤)، الشواعر الشريفة (الجزء الأول)، نيويورك، مطبعة «الهدى»، ص ٩٨.
- جمعية النهضة اللبنانية. (د.ت.). الكتاب اللبناني لتذكاري يوبيل النهضة اللبنانية ١٩١١-١٩٣٦، نيويورك، دار الهدى، ص ٢٤.
- مكرزل. سلوم. وقطش. حبيب، مع مقدمة من هنري زغيب، (٢٠١٧)، دليل المهاجرين اللبنانيين الأوائل إلى أميركا مطلع القرن العشرين (الطبعة الأولى ١٩٠٨ - نيويورك)، بيروت، منشورات مركز التراث اللبناني، الجامعة اللبنانية الأميركية، ص ٢٥.



كتاب «دليل المهاجرين اللبنانيين الأوائل إلى أميركا مطلع القرن العشرين» نشره سلوم مكرزل سنة ١٩٠٨

من دفاتر مصطفى فروخ

مصطفى فروخ

في إرث الكبير مصطفى فروخ (١٩٠١-١٩٥٧)، عدا لوحاته/ الكنوز، دفاتر كثيرة دُون فيها انطباعات ومشاهداته ومذكراته، صدر قسم منها في كتب، بعضها على أيامه، وبعضها الآخر بعد وفاته، تولى إصدارها ابنه هاني الذي ما زال في دفاتر والده عدد من النصوص غير المنشورة بعد.

من هذه الأخيرة، هذا النص الذي قدّمه هاني فروخ مشكوراً ليصدر في «مرايا التراث».



فسيفساء بيزنطية



هاني مصطفى فروخ:
حافظ إرث والده

الفن البيزنطي

لو ذهبنا باحثين نستكشف عن أصل الفن البيزنطي، لَعَلَّمْنَا - حسبما قدَّمه لنا المؤرخون والنقاد من أرباب الفنون - أن الفن البيزنطي هو مزيج من فنون الإغريق والرومان والشرق.

ولا نكران بأن هذا الفن تأثر إلى حدٍّ بعيد بالفنون الشرقية التي تظهر آثارها بجلاء وقوة، بغناها، وترفها، وزهو ألوانها النضرة البهيجة، ولمعان حجارتها الكريمة، وذهبها الوهاج، وكل ما يمثل الطُّع الشرقي الذي يميل كثيرًا إلى الزخرف والبهجة والنقش أكثر مما يميل إلى محاكاة الطبيعة والواقع.

والجيل الرابع عشر يمثل شخصية الفن البيزنطي، ويسمُّه بطابعه الخاص، بعد أن اكتمل هذا الفن، وبَرَزَ لونه، وظهert شخصيته في عهد جوستينيان.

الأمبراطور جوستينيان الأول راعي النهضة

ومن أروع آثاره التي تقدِّم صورةً عنه: كنيسة «آيا صوفيا» التي شُيِّدت بين ٥٣٢ و ٥٣٧ في مدينة القسطنطينية. وهي تتميز بقبابها الرحبة المنخفضة، وخطوطها المنحنية، وزخارفها المُتَرَفِّة والمُشْبَعَة بالفسيفساء والربيعية، وجوُّها المذهَّب، وخاصة في شكل تيجان أعمدتها ذات النقش الدقيق الناعم.

من قلب كنيسة «آيا صوفيا»



إلى جانب كنيسة «آيا صوفيا»، ولا تقلُّ عنها روعةً وجمالاً: كنيسة «سان فيتالي» في مدينة رافينا في شمالي شرقي إيطاليا، وكنيسة «الرسل القديسين» في القسطنطينية.



قبة كنيسة «سان فيتالي»

مُنَمَّعة من كنيسة
«الرسل القديسين»

إن الفن المترف الذي نشاهده في الكنائس البيزنطية، نراه أيضًا بارزًا في المينياتور (المنمنمات) والصوَر الدينية (الأيقونات) الشهيرة الممسوح أكثرُها بالذهب الذي ألهم الفنان البيزنطي عن الفن نفسه، وشغله عن التأمل في الطبيعة التي هي مرجعُ إلهام، والينبوع الذي يغذي الفن على الدوام. لذلك احتلت المادة مكان الفكرة، فَهَزَلَت الصورة، وَضَعُفَت، وضاعت في جوف الذهب والجواهر، وطغى عليها الذهب الذي أصبح أصلًا والفكرة الفنية فرعًا، فَبَعُدَ الفن عن الطبيعة بُعْدًا عَظِيمًا، وبات غريبًا عنه.

وعندما آذنت شمس هذا الفن بالمغيب، أصابه جمود وقسوة، وزالت معالم الحياة من قَسَمَاتِهِ وأشكاله، بدلًا من الأناقة والرقّة التي كانت من ميزاته الأولى، فسَقَطَ في دائرة الأشياء المهينة والترديد الممل والقواعد الهزيلة. وقد كان للفن البيزنطي تأثيرٌ ونفوذٌ في الشرق والغرب، فسَطَعَ خلال القرون الوسطى وكان هو الفن السائد في تلك الأمصار، وقد تلاشى

أخيراً مخلّفاً آثاراً غنيّةً تدل على ثراءٍ وترفٍ ودقّةٍ فيها الكثير من صوفية الشرق واهتمامه بالجزئيات دون الكبائر.

وفي دراسة حياة بعض فناني النهضة الأوروبية يظهر بدء التطوُّر في الأسلوب الفني وأصوله، وكيف كانت أولى المحاولات في استجلاء الحياة، والتغلغل في صميم النفس الإنسانية، وكشف عالمها الفني بشتى النزعات والانفعالات، وفتح العين على الطبيعة الرحبة الزاخرة بضروب الجمال والأنوار.



مصطفى فروخ بريشته

الملف

ريشة مسكونة
بذكريات بيروت

لميا اللبّان من كاليفورنيا: ريشة مشكونةٌ بذكريات بيروت

قلبُ ريشتها ينبض يومياً في رأس بيروت حيث وُلدت، ولو ان
يدها تمسك الريشة في إرقن (كاليفورنيا) حيث تعيش.
ولم تضيّع بوصلة ذاك القلب، بالرغم من تنقّلاتها بين الكويت
وتركيا وكندا والولايات المتحدة، فحيثما حلت بقيت بيروت في قلبها
وبقي رأس بيروت في قلب ريشتها.
لميا اللبّان، غادرت لبنان لكن لبنان لم يغادرها.

لذا تفوح في كل لوحة لها عطور الذكريات من طفولتها أو صباها،
فنلّح هنا شارعاً، هنا مبنًى تراثياً، هنا سيّدة تخطيط، هنا رجلاً في
مقهى، هنا أولاداً يلعبون، هنا تقاليد شعبية، هنا عادات بيروتية



لوحة لميا بالطربوش والحنين إلى بيروت

«عطيفة» قَطَفْتُهَا من مَرويات والدها سامي اللبَّان، كأنها حين سافَرت أَخَذت في حَقِيبتِها ظلال الذكريات، لتطل من لوحاتها شمسًا تسطع خلف تلك الظلال.

هي انطباعية علي طريقتها، تعبيرية على طريقتها، سوريةالية على طريقتها، حتى لتأبى أَنْ تَتَمَدَّرَسَ في تيار تشكيلي معَلَّب.

شهاداتها الأكاديمية (إجازة تعليم من مقاطعة كيبيك-كندا، ماسترز تعليم من كلية فرانغهام الجامعية، ولاية ماساشوستس الأميركية، بكالوريوس في الفنون الجميلة مع مرتبة الشرف من الجامعة اللبنانية الأميركية LAU،...) ليست سوى بساط واثق للدخول. الموهبة تتخطى الشهادة لكنها في حاجة إلى تركيزها على

أُسُس عِلْمِيَّة لا بدَّ منها، هي التي رَكَّزت لها أَعْمَالًا سطعت في معارض كبرى بين لبنان وكندا والولايات المتحدة.

اللوحات العَشْرُ في هذا العدد، مع نُصُوصها، (وموضوعها واحد: «الحنين إلى بيروت»)، أهدتها لميا اللبان إلى «مرايا التراث» صدَّى من البعيد إلى الصوت القريب، كي تكون شاهدة على عشرة أضواء من تراث لبنان في وجهه البيروتي.

لميا اللبان: شكراً لك، ودامت ريشتك نابضةً ببيروت ورأس بيروت وكل نفس نقى من عاصمتنا العروس.



لميا في صورة فوتوغرافية ولم يفارحها الطربوش

«أبو العبد البيروتي».. رجل المروعة والأخلاق

قد تكون شخصية «أبو العبد» البيروتي الفولكلورية الأكثر شعبيةً في الذاكرة الجماعية اللبنانية. لكن لها في الوجدان البيروتي رمزيها الخاصة ودلالاتها المحددة: إنها تختزل نسيج قيم أخلاقية كانت سائدة بين الناس، وتعبّر عن سلوك اجتماعي نبيل كان يربط بينهم. فـ «أبو العبد» استطاع أن يوصل رسائل وحيكم، غالباً مغلفةً بابتسامة. وبقدراً برع في تقديم ثقافة مشرفة، برع آخرون في تشويهها وابتذالها واستغلالها، فألصقت بها نكات غير عادلة للتعريف بشخصيته في الزمن الجميل وغير الجميل.

بدايات شخصية «أبو العبد» كانت مقتصرة على الحكواتي يسرد قصص أهل بيروت بأسلوب شيق. ومع ستينات القرن الماضي أخذت هذه الشخصية بالتطور فنياً، مع الممثل خليل شحادة في «مسرح فاروق» في وسط البلد، كان يرتاده البيارة ومعهم نرجيلتهم وطعامهم. ومع مطالع التلفزيون اشتهر بهذه الشخصية الممثل أحمد خليفة (ابن طريق الجديدة) فحافظ على صورة البيروتي «العطيق»، الشهم، الجدع، و«القبضاي»، وظهر بقمبازه وطربوشه الأحمر وخيزرانه وقرنفله وشاربيه المقوسين صعوداً. وهو مهنيّاً كان برتبة نقيب في مديرية إطفاء بيروت، واشتهر بتفانيه في عمله كما «أبو العبد» جدع وقبضاي. وفي مقالة صحافية قال يوماً: «جاء وقتٌ كان فيه كل بيروتي بشخصية أبو العبد: حلال مشاكل، يعطف على عائلة مستورة، ويسعف مريضاً محتاجاً، تماماً كأخلاق أبو

العبد». وهكذا كرّس خليفة تلك الشخصية لتكون مرآة للرأي العام اللبناني ملأى برسائل سياسية واجتماعية حافلة بالقصص والمشاكل.

وإنني اخترتُ في لوحتي «أبو العبد» معلماً من معالم بيروت المنقرضة اليوم، لكنه محفور في الذاكرة الجماعية لأهل بيروت. إنه مقهى ومطعم «ديبُو» بموقعه الخلاب وإطلالته على صخور الروشة.



حدائق بيروت «المعلّقة» و... عاشقة الورد

لم أزر جميع بيوت بيروت لكن تلك التي زرتها كانت شرفاتها مزينة بأحواض ملوّنة بدت لي كأنها «معلّقة». فالشرفات كانت جزءاً رئيساً من ثقافة بيروت المعمارية: يمكن التعرف على طبيعة ساكني الشقق من مشاهدة شرفتهم، بقدرماً تكون مميزة ومعتنى بها يكون القاطنون فيها مهتمين بجانب شقتهم الجمالي.



أذكر كيف كان معظم الجيران يبدؤون نهارهم على شرفات منازلهم باحتساء الزوجة والزوج قهوة الصباح، أو بقراءة الصحيفة يوصلها البائع إلى المنازل، أو بالتحديق إلى الأفق البعيد والتأمل على أنغام أغنية من ذاك الزمن الجميل. وقد تتعدد المشاهد إنما يبقى الهدف واحداً: الاستفتاح بيوم جميل خال من التوتر.

أما «عاشقة الورد» في لوحتي، هي التي صممت جنة منزلها على شرفتها، فإنها جارتنا في رأس بيروت. ولدت من أب لبناني وأمّ إسبانية. سألتها يوماً عن سر حديقته المعلقة، فأجابت: «ليس من وصفة سحرية ولا سر. إنه تفاعل صادق بين الإنسان والنبات، ريّ النباتات والتحدث معها على أنغام موسيقى تنعش النبات وتُفرّحه». وكانت سعيدة بتلك القناعة. فهي درست في المركز البريطاني وانتقلت إلى «كلية بيروت الجامعية» (حالياً: الجامعة اللبنانية الأميركية) تدرس «الإيكبانا» (Ikebana)، وهو فن تنسيق الزهور على الطريقة اليابانية، إذ يؤمن اليابانيون بأن القادرين على إتقان هذا الفن هم الذين يفهمون روح الناس ولهم رؤيتهم المميزة للعالم.

من هنا قول السيدة ستيل أنطوانيت كيال الرفاعي: «حافظوا على ثقافة بيروت، حافظوا على شرفاتكم. لا تحوّلوا منازلكم إلى صناديق». وفعلاً: أليست شرفات بيروت المعلقة جميلة رائعة بطريقتها الخاصة؟ هكذا أذكرها، بيروت الجميلة، بألوانها الزاهية وسيدات الرافيات. ولذا أقول: «لكم بيروتكم ولي بيروتي».

يوم قَصّ الشعر

جَرَتْ أحداث هذه القصة في رأس بيروت، شارع شوران ٧٥. هناك ترعرعتُ ورسمتُ أيامها في ذاكرتي قصصًا وحكايات ووقائع لا تُنسى. في لوحتي هذه، أحييتُ مشهد «يوم قص الشعر» على سطح بناية اللبان، كما تخيلتُه نقلًا عن المرويات. الصبية فيه هم أبناء عمي، من دون مراعاة الفوارق في أعمارهم.

كان جدي يوسف اللبان يطلب من الحلاق «أبو زكريا» الحضور إلى سطح البناية لـ «جَزَّ شَعْر» الصبيان (الجَزَّ هو القص بإفراط). وفيما كانوا ينتظرون دورهم، تخيلتهم يقومون بألعاب بسيطة ومسلية كانت رائجة قبل أن تغزونا الألعاب الإلكترونية.



لهذا السطح ذكريات عذبة، أقربها إلى قلبي تلك العريشة وسحرها الخلاب، وشتلة الشاي الأخضر المزروعة في علبة حليب «تاترا» من الصفيح (التنك)، كانت تُعتمد لزراعة الشتول المزهرة.

ومن وصايا جدي «ما بيحمل همك إلاّ اللي من دمك». كان يشدد عليها ويعمل على تعميقها في مفاهيمنا العائلية كي نبقى عائلة مترابطة متماسكة على المحبة والألفة، حفاظًا على صلة الرحم التي هي من وصايا الرحمن. فلنكتفِ الجهود كي يقدر الجيل الحالي والمقبل أهمية صلة الرحم، ولننذكر المثل الشعبي البيروتي: «ابن عمك هو من لحمك ودمك».

«مات أبو الفقير ليحيا أبو الغني... واتراموايا»

السيارات الكهربائية علامة المستقبل! وخط الترام منذ أكثر من مائة عام كان يعمل على الطاقة الكهربائية، وهذه قصة هذا الاختراع المنقرض في لبنان فقط.

وسائل النقل الأولى في لبنان قبل القرن العشرين كانت مقتصرة على الدواب: أحصنة وبعالا وحميراً، وعربات تُجرّها الخيول. ثم تطوّر النقل إلى عربات تسير بقوة البخار فالكهرباء «الترامواي» التي تتولّد في محطات مركزية على سكك حديدية ممدودة في شوارع المدن وضواحيها.

بدأ «الترامواي» في أواخر عهد إبراهيم باشا بعد انهيار السور وأبوابه، إذ اتخذ فخري بك (رئيس بلدية بيروت عهدذاك) تدابير بتوسعة شوارع المدينة وتنظيم أسواقها، فأمن سريان الكهرباء لإنارة المدينة وشوارعها.

اختلف شكل «الترامواي» بين سنة وأخرى: في بداياته كان الناس يخافونه ويصفونه بـ«دولاب الشيطان» أو «الحارة المتقلّبة» وكان ذا شكلين: المغلق والكبير (يتسع لخمسين راكباً) والوسطي (يتسع لثلاثين راكباً). وكانت الحافلة من قسمين: للسيدات والرجال، يفصل بين مقاعدها المتقابلة عمود حديدي، ويتمّ الصعود إليها على حافة حديدية.

عُرفت بعض المحطات بأسماء أشخاص: محطة «النويري» نسبةً إلى عبد القادر النويري (من أوائل العاملين في الترامواي، وأطلقت الشركة اسمه على أحد شوارع البسطة)، ومحطة «غراهام» (عند سور الجامعة الأميركية في عين المريسة)، نسبةً إلى أستاذ لدى كلية الطب في الجامعة كان يملك عيادةً هناك قرب شجرة عملاقة. ولتسويق عيادته، كان يعطي الجبابة كل يوم مجيدية كي يهتفوا باسمه عند توقّف الترامواي أمام عيادته، فاشتهر المكان باسمه.

وإذ فقدنا اليوم وسيلة مواصلات تتباهى بها ضواحي الدول المتقدمة في مدنها المزدهمة، بقيت قصة «ترامواي» في الذاكرة، جسدها الشاعر الشعبي عُمر الزعني في أغنيته «يا ترامواي بيروت»: «قاموك لأنك دغري وبتمشي على سكة دغري، يا ترامواي بيروت».



«ما دام جارك بخير، أنت بخير»

سَكَنَ جدِّي الأكبر خليل اللبان منطقة «الحمراء» وكانت قيد التكوين والعمران، قليلة السكن والمساكن، إلى أن نشأت فيها الجامعة الأميركية، فأصبحت من أكثر مناطق بيروت ازدهارًا وازدحامًا ورُقيًا. وكانت عائلات تلك المنطقة معدودة متعددة بتنوعها الديني، تحرص على نسج أفضل علاقات «الجيرة» مع بعضها البعض على الألفة والمحبة والتعاقد والرعاية والاهتمام وحسن الجوار.

السيدة في لوحتي هذه: سيدةٌ قديرة عُرِفَتْ بأعمالها الصالحة وغيرها على جيرانها، فإن سمعت بكاء طفل، ولو في منتصف الليل، حملت فانوسها وسارت بين حقول الصبار تتلمس طريقها بين الممرات الرملية الوعرة لمد يد المساعدة. وكثيرًا ما سارعت في محلتها إلى إرضاع طفل حديث الولادة، أو طهي وجبة لامرأة مريضة أو عائلة محتاجة.

إنها خديجة غلاييني اللبان، جدة والدي، جسدت بشخصيتها ومزاياها بيروت الأصالة والحضارة والقيم والتعايش.

بلى: عرف أجدادنا معنى احترام الناس ومناصرتهم في الشدائد، وكانوا مثال الأخلاق والتنوع بمحبة وألفة وحسن جوار.



صندوق الفرجة

«شوف تفرّج يا سلام شوف أحوالك بالتمام
شوف قدامك عجائب شوف قدامك غرائب
شوف الأميرة بنت السلطان

شوف عنتر أبو الفوارس كيف بحديدو غاطس
شوف الحلوة عبله ليت عيونها ما تبلى
وشفافها رق الفنجان...».

هذه «الأهزوجة» كان يطلقها صاحب «صندوق الفرجة» (تلفزيون أيام زمان) بصوت عالٍ لجذب الأطفال لمشاهدة «العجائب» داخل الصندوق. عرفت ذلك من خلال ذاكرة عمتي سامية التي كانت تقص علينا ذكريات أيام زمان. أخبرتنا أنها في طفولتها ادخرت نقوداً كي تعيش تجربة «صندوق الفرجة» بمبلغ ٥ قروش، وكان يومها مبلغاً كبيراً إذ كان ثمن لوح «الشوكولا» ربع قرش.

«صندوق الفرجة»، خشبيّ مستطيل مطلي بألوان «فاقعة»، ذو ثلاثة ثقوب مستديرة مغطاة بقطع من الزجاج لتمكين الأولاد الجالسين من مشاهدة المناظر داخله، يحركها صاحب الصندوق بدولاب مغلف بالصور المتتالية، فيما يروي القصة بصوته مع تغيير النبرات والطبقات بما يتماشى مع المشاهد، وسط انبهار الأطفال بما يشاهدونه، كأنها كانت عجيبة في حينه!!!

وتروي عمتي سامية أنها كانت تجربة سورالية نقلتها من عالم الواقع إلى عالم العجائب، متذكّرة قصة «ليلي والذئب» كما شاهدها صوتاً وصورةً في ذلك «الصندوق».



الشارع الذي أفقده: «شانزليزية الشرق»

بدك بابوج؟ فيه..

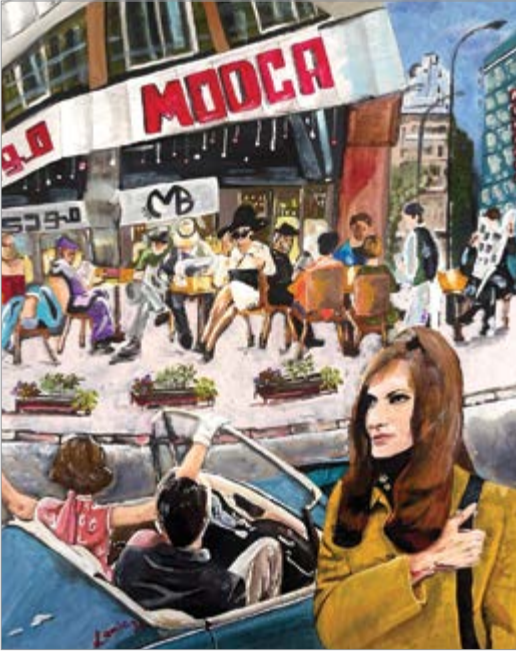
بدك طربوش؟ فيه..

بدك تحضر فيلم جديد؟ فيه..

بدك قعدة قهوة مع المثقفين؟ فيه..

بدك الذوق و الموضة؟ فيه..

كل هذا موجود في شارع له تاريخ عريق يدعى شارع «الحمراء»!



في القرن الخامس عشر
نشب قتال بين آل الحمراء (كانوا
يترددون من البقاع على بيروت)
وآل تلحوق، فاستولى الفريق الأول
على هذه المنطقة، وانتسبت
المنطقة إلى الفريق المنتصر فزرع
الأرض لتأمين القوات اليومي.
قبل ذلك كانت المحلة تدعى «جرن
الدب» فتحوّلت مزرعة يقطنها
الفلاحون، وحملت أسماء مختلفة،
منها: «مزرعة الحمراء»، «كرم
الحمراء»، «زقاق الحمراء»، «كرم
السهول الحمراء»، و«الظهر
الأحمر». وعن بعض العائلات
البيروتية المعروفة أن تحدّرت
من آل الحمراء عائلات بيروتية
معروفة، منها: الداعوق، العيتاني،

شاتيلا، الفاخوري، اللبان، شهاب، حمندي، ... وبقيت المحلة ذات طابع
زراعي حتى ظهر فيها التطور العمراني والسكاني تباغاً.

وحديثاً، كان هذا الشارع مقصد السياح على مدار السنة لشهرته وجهةً
تجارية من الدرجة الأولى تتباهى فيه أحدث صيحات الموضة.

إنني أفتقد شارع الحمراء بارتباط كبير، هو الذي فيه نشأ إرث عائلتي.

أفتقده لأنه لم يعد كما عهدناه «شانزليزية الشرق الأوسط».

«حطّوا السجّاد... شيلوا السجّاد...»

نتغنّى في لبنان بفصوله الأربعة: نعمة للاستمتاع بجمال الطبيعة إنما ... نعمة لمن يملك السجاد في غرف المنزل.

رغم مرور الزمن، لم أنس تلك المهمة «الشاقة». لذا استعدّتها في لوحتي، راسمة السيدة زلهان عمار سيوفي، بجانبها ابنتها حنان في يدها خرقة لتتظيف المنزل.

إنها تمسك بيدها مضرب سجاد من قصب (عوض المنظف الكهربائي اليوم) كي تقتلع الغبار متصاعداً يتناثر من السجاد عاصفة تثير السعال وبعض الاختناق.

هذه المهمة كانت أول ما تتعلمه الفتاة عند أهلها، قبل أن تترقّى إلى «مهام» أخرى كالجلي والكس وتوضيب الغسيل...

كانت عملية نفّض السجاد كابوسي، طيلة نهار كامل من بسط وتشميس وضرب ووضع «النفّطين» للوقاية من «العث» و«البعوض»، ثم اللف على عصا غليظة حفاظاً على ثباتها ومنعاً من انحنائها، وبعد اللف تغليف السجادة بأكياس من الكتان تمهيداً لركنها وتخزينها. وكان على سيدة المنزل أن تجد مكاناً مناسباً يُخفي أحجام السجاد المختلفة: تحت السرير أو وراء الباب أو على «التخيتة» أو وراء الكنية وسواها من زوايا المنزل. وغالباً ما كانت تُرفع على «طبلية» من خشب كي لا تصلها المياه عند «شطف» البيت.

ولهذه المهمة موعدان سنويان: بسطها مع بداية فصل الشتاء وضبطها مع بداية فصل الصيف. واختارت سيدات إبقاء السجاد طيلة السنة لتفادي تلك المراحل، فيقال: «البيت شكلو أقرع من دون سجاد».

وهذا صحيح، فالسجّاد يضيف على المنزل طابعاً من فخامة.



«تفضلوا عَ المحشي»

إنه مثل شعبي طريف كنتُ أسمعه من جدتي معبِّراً عن طعم هذه الأكلة اللذيذة والمثل الكامل هو: «افرح يا كرشي... اليوم رح تاكل محشي». اشتهر أهل بيروت بأكلة «القبُلما»: قطع كوسى محشوة مطبوخة باللبن أو بالصلصة الحمراء.

كانت معظم الفتيات يتزوجن في سنٍّ مبكرة (قبل العشرين)، وإلا اعتُبرن «عوانس». لذا كانت الفتاة تتحضر لهذه المغامرة بتعلم مهارات عدة، أهمُّها الطبخ.



وكانت في البيوت خزانة صغيرة معلقة تدعى «النملية»: دولاب خشبي ومعدني يعرف بـ«المنخل» للتهوئة، أشبه بثلاجة إنما بدون كهرباء. كان ذاك مخزناً لحفظ الطعام من الحشرات والغبار، ولتخزين بعض المؤونة، يحوي مأكولات جافة وغير جافة كاللبننة بالزيت والجبنة البيضاء والشاي المجفف والزيتون والمخللات والمرَّبى والسكر والزعتر وسواها. ومع انتشار البرادات أبقت سيداتُ تلك «التحفة القديمة» خزانة تضم الأدوات المنزلية من صحنون وكبايات وغيرها.

«دق برجيس»

في المثل السائد: «دق برجيس خير من ألف جليس بائس وتعيس». سمعته من خبراء فجسّدته في لوحتي هذه عن جدّي وجدّتي. فالأجداد هم ارتباطنا بالماضي القريب، وبأحداث ومعتقدات وتجارب تؤثر على حياتنا والعالم من حولنا. لذا أصبحت أكثر خصوصية لي اليوم ذكريات كنت أعزّز بها كطفلة في منزلهم.

جدي يوسف اللبان وجدتي عائشة عرقجي كانا يحرصان على قضاء أوقات مسلية معاً، منها لعبة «البرجيس»، بعدما تكون جدتي حضّرت الحلوى البيروتية التي كان يحبها جدي: «المعكرون» و«السحلب»، فالجلسة قد تستغرق وقتاً طويلاً لإنهاء اللعبة.

وكانت جدتي تسمع تعابير وتردّها مثل: «إجت البارة؟ يا لطيف تلطف من الخسارة»، أو «إجت الشكّة؟ خي يعني إجت الفكّة»، أو «إجا الدسّين؟ الله يُجيرنا من العين».. وجميعها طبعاً باللهجة البيروتية «الطقيّة».

تلك اللعبة مكوّنة من قماشه مخملية، غالباً سوداء، مزخرفة بتطريز بسيط لتحديد مسار البيادق المعدنية، ومُرفّقة بسِتّ أصداف بدلاً من حجارة الزهر. بقيت هذه اللعبة المخملية عنصراً رئيساً في مهر العروس البيروتية حتى منتصف القرن العشرين. كانت خياراً ترفيهياً شائعاً عند نساء يمضين بعد الظهر في الأبنية المغلقة أو المنازل التقليدية القديمة. فهذه لعبة قديمة جداً، تطوّرت واشتهرت منذ القرن الرابع لعبة وطنية في الهند انتقلت إلى بلاد الفرس حتى وصلت إلى بلاد الشام.

تعلّمتُ لعبة «البرجيس» من جدتي، واستتجّت أنها، كمثيالاتها، تحث على تمضية وقت أكثر خصوصية من الألعاب التكنولوجية. فجدتي كانت، بينما تلعب «البرجيس»، تحيك «الكروشيّة» وتُطلع من يديها أشغالاً يدوية مبدعة.

تعرفت على أناقة الرجل البيروتي من صوّر جدي: كان يرتدي البدلة وربطة العنق كل الوقت حتى أثناء لعبة «البرجيس». وكانت جدتي حريصة على تنسيق ألوان ملابسها المحتشمة مُرفّقةً «بالقمطة» الشهيرة.

ومن خلال جدي وجدتي، تعلّمتُ كيف أحترم الآخرين، وكيف أقدر اللحظات والأمور البسيطة في هذا العالم.



تراثنا التاريخي

مسعود ضاهر

تدريس تاريخ لبنان: كتاب موحد ؟ أم منهج موحد ؟

تراثنا السينمائي

هادي زكّاك

طرابلس ذات «السيلمّا»: مدينة سبّاقة إلى تراث سبّاق

تراثنا الحضاري

ندين عراجي

المرأة اللبنانية: ريادة ساطعة في لبنان والشرق

تدريس تاريخ لبنان: كتاب موحد؟ أم منهج موحد؟

مسعود ضاهر

اتفاق الطائف: توحيد الكتاب

إبان حرب ١٩٧٥-١٩٨٩ تفلّت كتاب التاريخ المدرسي من الضوابط التربوية والوطنية، وبات يهدد مستقبل أجيال جديدة من اللبنانيين في نظرهم إلى التاريخ المشترك وبناء الوطن المُوحد. من هنا شدّد «اتفاق الطائف» على «إعادة النظر في المناهج وتطويرها، بما يعزّز الانتماء والانصهار الوطنيين، والانفتاح الروحي والثقافي، وتوحيد الكتاب في مادّتي التاريخ والتربية الوطنية». ولهذه الغاية، تشكلت لجان تربية توافقية لتوحيد كتاب التاريخ المدرسي في لبنان، والارتقاء بالانتماء الطائفي الضيق لدى اللبنانيين إلى انتماء وطني شامل. وما إن صدرت عن «المركز التربوي للبحوث والإنماء» أجزاء قليلة من سلسلة «كتاب التاريخ المدرسي المُوحد» سنة ٢٠٠١ حتى دار سجال سياسي حادّ حول المادة التاريخية، دفع بوزير التربية الوطنية يومها (عبدالرحيم مراد) إلى وقف توزيع الكتاب، ومنع تدريس مادة التاريخ في جميع المدارس اللبنانية. لاحقاً شكّلت لجنة جديدة بإشراف «المركز»، أنجزت عملها بعد ثلاث سنوات من العمل المتواصل، لكن الكتاب المدرسي المُوحد لم يصدر. وبعد تشكيل حكومة الوحدة الوطنية شكّلت لجنة جديدة وعُدّت بإصدار كتاب التاريخ المدرسي المُوحد بعد تذليل جميع العقبات من أمامه.

غاب ضبط المراقبة فانفلتت الفوضى

في تلك الأثناء، وفي غياب كتاب التاريخ المدرسي المُوحد، انتشرت سلاسل عدة بلغت أكثر من عشرين سلسلة منتشرة في لغات عدة، لتدريس التاريخ في المدارس الرسمية والخاصة، بدون إشراف سلطة الرقابة: «المركز التربوي للبحوث والإنماء». وذلك يطرح تساؤلات منهجية حول أسباب الأزمة، وجديّة الحلول المقترحة للخروج منها، وتساؤلات أخرى حول طبيعة السياسة التربوية التي تعتمد عليها الدولة اللبنانية في المرحلة

الراهنّة، وسبب تقاعسها عن معالجة أزمة كتاب التاريخ المدرسي المُوَحَّد طوال السنوات الماضية.

تاريخ المقاطعات اللبنانية يرقى إلى قرون طويلة شهدت تعاقد شعوب عدة، وصراعاً على مركزية السلطة بين القوى المحلية، إلى أن وُلِدَت «دولة لبنان الكبير» بحدودها الحالية سنة ١٩٢٠. وشكّلت الجبال اللبنانية ملجأً لجماعات طائفية مضطهدة، تعيش فيها اليوم أكثر من ثماني عشرة طائفة دينية، وقوميات عرقية متعددة.

إشكاليات منهجية

كتابة التاريخ المدرسي المُوَحَّد في لبنان تواجه إشكاليات منهجية ذات طابع علمي وتربوي بالدرجة الأولى، لعل أبرزها:

- ضرورة الإلمام الواسع بالقواعد التربوية.
- تفهّم نفسية التلميذ وإمكاناته الفكرية.
- تدوُّج النص التاريخي من السهل إلى الصعب فالأصعب.
- احترام الحقائق التاريخية بالعودة إلى المصادر الموثوقة.
- إظهار تطوُّر أوضاع لبنان الجغرافية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية في جميع المناطق والطوائف.
- إبراز دور لبنان واللبنانيين على المستويين العربي والعالمي.

المعالجة... حذر، علم، وطنية

كل هذا أعلاه، يتطلب عدم إسقاط (أو تجاهل) الجوانب السلبية في تاريخ لبنان، بل معالجتها بحذر شديد، وبروح علمية عالية، وبحس وطني، لتعزيز العيش المشترك بين جميع اللبنانيين أيّاً تَكُن طوائفهم ومناطقهم. وهذه المعالجة ترتبط وثيقاً بركيزتين لتاريخ المجتمع اللبناني وتطوُّره المستمر، هما :

(أ) التوزُّع الجغرافي لسكّن الجماعات أو الطوائف في المقاطعات اللبنانية.

(ب) تنوع الأدوار التي قام بها زعماء الطوائف اللبنانية في مختلف الحقب التاريخية.

هاتان الركيزتان شكّلتا الموروث التاريخي للنزاعات اللبنانية، حيال تدخّل عوامل متعددة جعلت من جبال لبنان الحصينة الصعبة المسالك

ملجأً غالبية الطوائف المضطهدة في المشرق العربي. وشهدت المناطق المجاورة جبال لبنان حالات صراع دموي بين الملل والمذاهب، وداخل الفرق الدينية اليهودية والمسيحية والإسلامية، ونزاعاً دموياً مستمراً بين زعماء الملل على السلطة والنفوذ وجباية الضرائب. وجاء نظام الملل العثماني يرسي أساساً علمياً لكتابة تاريخ لبنان الحديث، كما ورد في وثائق تاريخية معتمدة حتى الآن. هكذا المرويات عن الوقائع أو الأحداث التاريخية اللبنانية انتقلت شفويّاً داخل كل طائفة، وحين تمّ تدوينها لم يتمّ التحقق أحياناً من صحتها فتّم تداولُها استناداً إلى روايتها الطائفيين دون مقارنتها بمرويات فردية أو جماعية لدى رواة الطوائف الأخرى.

تدوينات «انتقائية»

إذاً، هكذا الأحداث التاريخية التي شهدتها المقاطعات اللبنانية دُوّنت انتقائياً، وعلى ذمة روايتها فقط، من هنا أنها، في معظمها، عرضة للطعن والشك لدى من يتوخّى الدقة والموضوعية في كتابة تاريخ لبنان بالانتقال من مرويات الطوائف إلى كتابة تاريخ لبنان المؤخّذ. لهذا باتت كتابة التاريخ المدرسي في لبنان بالغة الصعوبة أمام كثافة الروايات والمرويات الطائفية والمذهبية والمناطقية غير العلمية.

كانت طوائف لبنان وقومياته تتعايش متجانبةً دون أن تتدامج، ما جعلها عرضةً لتدخلات إقليمية ودولية حوّلت لبنان أحياناً ساحة نزاعات دموية. ولكنّ لدى لبنان اليوم مؤرخين متزوّدين تزوّدوا وثنائق علمية غنية وحسّاً بالمسؤولية الوطنية يجعلهم قادرين على نسج تاريخ لبنان بكتابة علمية تتجاوز عنعنات الطوائف دون أن تلغي تاريخ أيّ منها. وهي هذه الصيغة الفضلى لكتابة تاريخ وطن متعدد الطوائف والقوميات تشكّل كتابته مصدر غنى وتنوّع في زمن السلم لكنها تتقلب مآسي مدّمرة زمن النزاعات المتكررة. ويلفت أن كثرة الدراسات ذات المنحى الطائفي لم تشكّل عائقاً أمام نشر دراسات تاريخية علمية رصينة وضعها مؤرخون ذوو نزعة غير طائفية لها أهمية خاصة عند تحليل الجذور العميقة لولادة أهم التيارات السياسية والثقافية العقلانية في بيروت وجبل لبنان أواخر العهد العثماني.

معالجات تنويرية

في تلك الدراسات أعلاه، تمّ التركيز على الأشكال الثقافية الجديدة، ودور المثقفين النهضويين في تكوين الرأي العام من خلال الجامعات

اللبنانية ومدارس الإرساليات والصحافة والطباعة والفنون. وأدّى مثقفون لبنانيون نهضويون دورًا بارزًا في تأليب الرأي العام العربي ضد السلطنة العثمانية، انطلاقًا من فكر ليبرالي تنويري، فنشروا مقولات التحديث العلماني بشكل واسع في المقاطعات اللبنانية وفي مصر ومعظم أنحاء بلاد الشام، واهتم لكتاباتهم مؤرخون اجتماعيون وعاملون على كتابة تاريخ لبنان المُوَحَّد.

أهمية تلك الكتابات أنها تكشف زُيْف تاريخ لبنان إيديولوجي أو طوائفي مشوّه ساهم في تعميق أزمات لبنان المستمرة منذ أواسط القرن التاسع عشر حتى اليوم، وشكّل هوة ثقافية عميقة بين اللبنانيين في نظرتهم إلى تاريخ لبنان المعاصر باتت في حاجة مصيرية إلى تصويب علمي بدراسات تاريخية علمية جادة موثقة لإعادة التواصل الثقافي بين أجيال من اللبنانيين عاشوا مأساة الحرب أو ولدوا بعدها. وهي تتطلب التركيز المعمّق على تطوّر البنى السياسية والإدارية والاقتصادية اللبنانية استنادًا إلى التوثيق الجيد والتحليل العلمي لتاريخ لبنان من مختلف جوانبه، بالإضافة من دراسات أكاديمية عن تاريخ لبنان صادرة في لغات عدة.

من مرويّات الطوائف إلى التاريخ المدرسي المُوَحَّد

المرويّات الطوائفية استنفدت غاياتها في الأدلجة المسيئة إلى تاريخ لبنان وحاضره ومستقبله، والدراسات الطوائفية الصادرة بعد اتفاق الطائف لم تقدّم أيّ جديد على المرويّات الطوائفية السابقة. حيال ذلك، ضروريّ تناول التاريخ المؤدّج الفردي لدى كل طائفة أو منطقة، ونقله إلى التاريخ الاجتماعي لجميع الطوائف والمناطق اللبنانية معًا. أما إذا استمرت المرويّات الطائفية تتجدّد ضمن دائرتها الضيقة فسوف تتكرر مأساة لبنان بجميع طوائفه، شرط أن يتمّ هذا النقل تدريجيًا وموضوعيًا بغير تعسف قسري من الانتماء الطائفي إلى الانتماء الوطني خارج القيد الطائفي، ومن التجزئة المنطقية إلى المواطنة الكاملة في دولة لبنانية، عصرية، مستقلة، ذات سيادة تامة على جميع مواطنيها ومناطقها.

وما يشجع على هذا الأمر الممكن: نشاط لجان علمية متخصصة بحثت سنواتٍ في كتابة تاريخ لبنان المدرسي المُوَحَّد على أسس علمية، تحافظ على تنوّع التعددية الطائفية إنما أيضًا تحرص على كتابة تاريخ لبنان الشامل بكامل طوائفه ومناطقه. وهي أفادت من تجارب علمية لدى

دول متطورة لكتابة التاريخ المدرسي. وكانت الحرب اللبنانية تركت صورة سلبية جداً متبادلة بين الطوائف اللبنانية، ازدادت سوءاً بعد اتفاق الطائف إذ تحوّلت الطائفيةُ مذهبيةً وتعاظّم العامل الإقليمي والدولي على الساحة اللبنانية، ما أدى إلى طرح مشكلات منهجية عدة، أبرزها أربع:

أولاً:

المدلول السياسي لقرار توحيد كتاب التاريخ المدرسي في لبنان

استرجعت الدولة اللبنانية مركزيتها بموجب اتفاق الطائف، فبدأت مسعىً جدياً لبناء دولة عصرية يتساوى فيها جميع اللبنانيين حقوقاً وواجباتٍ على أساس المواطنة السليمة وتجاوز سلبات المرحلة الطائفية الطويلة. لكن تطبيق اتفاق الطائف تعرّض مصطدماً بهيمنة نزعة طائفية ثم مذهبية حالت دون تنفيذ معظم البنود الإصلاحية، ومنها كتاب التاريخ المدرسي المُوَحَّد.

نص الدستور وأهداف الدولة

في مقدمة الدستور اللبناني الجديد (١٩٩٢) جاء أن «لبنان وطن سيد حر مستقل، وطن نهائي لجميع أبنائه، واحد أرضاً وشعباً ومؤسساتٍ في حدوده المنصوص عنها في هذا الدستور والمُعترف بها دولياً».

وفي مجال التربية والتعليم نصّ الدستور على «توفير العلم للجميع، وجعله إلزامياً في المرحلة الابتدائية على الأقل، والتأكيد على حرية التعليم وفق القوانين والأنظمة العامة، وحماية التعليم الخاص، وتعزيز رقابة الدولة على المدارس الخاصة وعلى الكتاب المدرسي، وإصلاح التعليم الرسمي والمهني والتقني وتعزيزه وتطويره بما يلائم ملبياً حاجات البلاد الإنمائية والإعمارية، وإصلاح أوضاع الجامعة اللبنانية وتقديم الدعم لها وبخاصة في كلياتها التطبيقية، وإعادة النظر في المناهج وتطويرها بما يعزز الانتماء والانصهار الوطنيين، والانفتاح الروحي والثقافي، وتوحيد الكتاب في مادّتي التاريخ والتربية الوطنية».

وحددت الدولة اللبنانية أهدافَ تدريس مادة التاريخ ومناهجها في مراحل التعليم العام قبل الجامعي، على أن «تسهم مادة التاريخ إسهاماً بارزاً في تكوين ثقافة التلميذ الوطنية والإنسانية، وفي تنمية معارفه العلمية، وفي تلقينه تربيةً سليمة».

شُغور الطلبة بتغيبيهم

عملياً، الصورة المتبادلة بين الطوائف اللبنانية عبر تاريخها الطويل لم تكن موضوعية، لا شكلاً ولا مضموناً، فانعكست سلبياً على كتاب التاريخ المدرسي في جميع مراحل التدريس قبل الجامعي. ذلك أن مادة كتاب التاريخ كانت انتقائية جداً في اختيار الحقب التاريخية، وأحداث تُعلي دور طوائف في تاريخ لبنان على حساب تهميش (أو تجاهل) طوائف أخرى، فكان عدد كبير من الطلبة اللبنانيين يشعرون بغياب تام (أو جزئي) لتاريخ مناطقهم وطوائفهم، وزعمائهم السياسيين، ومفكرهم البارزين. حيال ذلك، تمّ التركيز على أولوية طوائف محددة في بناء لبنان الحديث، بانتقاله من الإمارتين المعنية والشهابية إلى مرحلة تقسيم المقاطعات اللبنانية فنظام قائمقاميتين: واحدة للدروز والأخرى للنصارى، نظاماً سياسياً مهّد لولادة متصرفية جبل لبنان أو «لبنان الصغير» ١٨٦١ و١٩١٤. وجاء الفرنسيون فوسّعوا حدود المقاطعات اللبنانية بإعلان دولة لبنان الكبير وعاصمته بيروت عام ١٩٢٠، وتثبيت تلك الحدود مع نيل لبنان استقلاله السياسي عام ١٩٤٣.

معقّدة جداً كتابة تاريخ تلك التبدّلات المتسارعة، خصوصاً في ظروف محلية بلغ فيها الانقسام الطائفي والسياسي درجة عالية من الحدة والنزاع الدموي والتهجير الطائفي المتبادل بين سكان بعض المناطق اللبنانية. من هنا أن محاولة توحيد كتاب التاريخ المدرسي شهدت صراعاً حاداً بين القوى السياسية والطائفية في لبنان لأسباب بعضها ذاتي والآخر موضوعي. فصورة كل طائفة عن ذاتها وعن أفرادها البارزين وعن دورها في تاريخ لبنان مضخّمة جداً، فيما سلبية بل منفرة في معظم حوائجها صورة كل طائفة عن الطوائف الأخرى. وغالباً ما يصنّف الآخر الطائفي في خانة العدو الداخلي المحتمل عند انفجار الأزمات.

نظرة سجالية

ولم تكن النظرة إلى الماضي واحدة أو موحدة لدى جميع الطوائف، ووقعت الحرب فزادتها سلبيةً وتشويهاً حتى باتت نظرة اللبنانيين إلى تاريخهم، قديمه ووسيطه وحديثه والمعاصر، موضع سجال حاد يتحمّل نتائج تلامذة المدارس في أجواء الشحن الطائفي والمذهبي المتوتر على الساحة اللبنانية. فالخلاف حادٌ على أصل الفينيقيين ودورهم الثقافي والاقتصادي، وعلى تاريخ العرب قبل الإسلام، وعروبة لبنان منذ القدم،

ودور كلٍّ من الطوائف المسيحية والإسلامية في بناء الدولة اللبنانية الحديثة، ومواقف زعماء تلك الطوائف من حروب الفرنجة أو الحروب الصليبية، ومن السلطنة العثمانية، والانتداب الفرنسي خصوصاً وارتباط لبنان مع أوروبا عمومًا، وموقف لبنان من الصراع العربي الصهيوني، ومواضيع أخرى لا حصر لها.

ثانيًا:

الإشكاليات النظرية المعتمدة

كان صعبًا تقديم مقولات نظرية تصلح لجميع الحقب التاريخية التي مرت بها المقاطعات اللبنانية. من أبرز الإشكاليات المعتمدة:

١. أنّ الكتابة عن تاريخ لبنان، في الكتب العامة أو كتاب التاريخ المدرسي، كتابة طائفية مشوّهة غير موضوعية.

٢. أنّ رؤية كل طائفة لذاتها وللطوائف الأخرى غير عقلانية وغير موضوعية.

٣. أنّ كتب التاريخ المعتمدة في المدارس اللبنانية، رسميّتها والخاصة، ليست واحدة، ومنهج التدريس المؤخّذ يعتمد العناوين العامة فقط في حين تبرز خلافات حادة عند جميع التفاصيل.

٤. أنّ توحيد الامتحانات في مادة التاريخ شكّلت خطوة إيجابية لكنها غير كافية. وكثيرًا ما تم التركيز فقط على توحيد السنة المنهجية التي يتقدم فيها الطلبة للامتحانات الرسمية وظلّ تدريس التاريخ في السنوات الأخرى وفق توجيهات إدارة المدرسة وكتاب التاريخ المعتمد ومزاج الذي غالبًا ما أبدل الكتاب المقرر بمادة شخصية توزع على الطلبة.

٥. أنّ موقع مادة التاريخ ظلّ هامشيًا في جميع المدارس اللبنانية. لذا سهّل إيقاف تدريسها منذ ٢٠٠١ بقرار وزير التربية وبعدها لم تعد المدارس مطالبة بإعادة تدريس تلك المادة، ما يدل على أن الأزمة عميقة الجذور، تتطلب شرحًا مستفيضًا لمناهج تدريس مادة التاريخ قبل اتفاق الطائف وبعده، إذ أدخلت في صلب المناهج قضايا نظرية هامة يتم تداولها في وسائل الإعلام اليومية، أبرزها: الوحدة الوطنية، السيادة، الاستقلال، دراسة نماذج محددة من الدولة المركزية والدولة الفدرالية والدولة الكونفدرالية، قضايا الديمقراطية وحقوق الإنسان، شرعية الدولة، تكافؤ الفرص،

العدالة الاجتماعية، التنمية البشرية والاقتصادية المستدامة، الحكم الصالح، قضايا الشباب، النهوض بالمرأة، الهجرة. وتم التركيز على الحريات الأساسية، وحقوق الإنسان ودورها في تنمية المواطن الحر، على أن يشارك التلميذ في إعداد ملفات شخصية عن الخطر الصهيوني على لبنان، والتضامن العربي، وأهمية الوحدة الديمقراطية بين الشعوب العربية في عصر العولمة والوحدات الجغرافية والسياسية الكبيرة، فيتعرف إلى أهم الحركات الثورية والنضالية والإصلاحية في لبنان والعالم العربي والعالم، وإلى أبرز سمات عصر العولمة والآثار السلبية المترتبة عليها سياسياً وعسكرياً واقتصادياً واجتماعياً وثقافياً.

ثالثاً:

لماذا كتاب التاريخ المدرسي المُوَحَّد تحوّل أزمة صعبة الحل؟

سنة ١٩٩٦ شكّل مجلس الوزراء اللبناني لجنة مؤرخين يضعون الأهداف العامة لتدريس التاريخ في المراحل قبل الجامعية، ووافق على عملها سنة ١٩٩٧ وتشكلت لجنة جديدة لوضع الأهداف الخاصة بمناهج مادة التاريخ، فلجنة ثالثة لوضع منهج التعليم في مراحل التعليم قبل الجامعي. وسنة ٢٠٠٠ أصدر مجلس الوزراء مرسوماً حدد فيه أهداف ومناهج مادة التاريخ في مراحل التعليم قبل الجامعي. ووضع المركز التربوي للبحوث والإنماء خطة تربوية متكاملة لتحديث مناهج التربية والتعليم في لبنان، وتالياً إصدار كتاب التاريخ المدرسي المُوَحَّد، وكتاب موحد للتشعّث الوطنية. وأصدرت وزارة التربية تعميماً أوقف العمل بالمناهج القديمة لمادة التاريخ في انتظار أن يُصدر المركز التربوي للبحوث والإنماء الكتاب المُوَحَّد.

صدمة وقف الكتاب ومنع تدريسه

وبدأت مرحلة التأليف لجاناً اختصاص مراعى فيها التوزيع الطائفي والمناطقية. وما إن صدر أول جزئين في كتاب التاريخ من سلسلة «نافذتي على الماضي» (للسنتين الثانية والثالثة من مرحلة التعليم الأساسي) حتى تعرّض الكتاب لانتقادات حادة أطلقها نواب وخطباء مساجد، ما دفع وزير التربية إلى إيقافه، وإصدار التعميم ٩٢ لعام ٢٠٠١ طالباً من إدارات المدارس والثانويات الرسمية استبدال ساعات تدريس مادة التاريخ بمادة التربية المدنية في برنامج توزيع الدروس الأسبوعي. وأصدر قراراً بإيقاف

تدريس سلسلة كتاب التاريخ المُؤخَّد الصادر عن المركز التربوي للبحوث والإنماء للسنتين الدراسيتين ٢٠٠١-٢٠٠٢، وكان مقررًا صدورها كاملة في مطلع العام الدراسي ٢٠٠٢-٢٠٠٣.

ما كانت أهداف وزير التربية من توحيد كتاب التاريخ المدرسي؟ ولماذا تراجع عن توقيده بعد أزمة حادة أدت إلى توقيف تدريس مادة التاريخ في المدارس اللبنانية فور صدور جزئين من سلسلة كتب التاريخ الجديدة بإشراف المركز التربوي وإعداده ونشره؟

خلفيات المنع الجائر

أثار صدور تلك القرارات تساؤلات منهجية حول أزمة كتاب التاريخ المدرسي في لبنان، وما إذا كانت تربويةً هدفُها تطوير كتاب التاريخ المدرسي المُؤخَّد؟ أم سياسيةً لِمَنعه مُوقَّتًا أو نهائيًّا؟ ومن تلك التساؤلات:

١. هل الأزمة نجمت عن تأليف الكتاب ونقاط فيه سجالية أدت إلى شن حملة ضده انتهت بإيقافه؟

٢. أم نجمت تلك الأزمة عن تشكيل لجنتين (لتأليف كتب التاريخ وأخرى للرقابة عليها) ضمنا باحثين غير مختصين في مجال التاريخ، معظمهم من اختصاصات أخرى كالفلسفة والعلوم السياسية والأدب العربي وغيرها؟ وهل اللجنة الرقابية تناولت مضمون المادة التاريخية بدقة؟ أم تركت الحرية لمؤلفين لم يراعوا الدقة العلمية ولا الحساسيات الطائفية والمذهبية والسياسية المتفجرة على الساحة اللبنانية؟

٣. هل تكمن الأزمة في الموقف السياسي الملتبس لدى وزارة التربية الوطنية التي، علانيةً، تعلن عن ضرورة توحيد كتاب التاريخ المدرسي فيما، سرًّا، تعمل على الحؤول دون نجاح هذا المنحى حتى النهاية؟ فوزير التربية أصدر تعميمًا بتشكيل لجنة عليا جديدة من عشرة مؤرخين لبنانيين لوضع منهاج جديد لمادة التاريخ في جميع مراحل التعليم قبل الجامعي، بإشراف المركز التربوي للبحوث والإنماء. وأنجزت اللجنة عملها في مطلع ٢٠٠٥، ثم تعاقب على الوزارة عدد من الوزراء، لكن كتاب التاريخ المدرسي المُؤخَّد لم يصدر، فأنفلت الأمر في السنوات اللاحقة إلى فوضى كبيرة في تأليف ونشر كتب مدرسية متنوعة، بعضها يفتقر إلى الحد الأدنى من الموضوعية والدقة العلمية.

دخلت أزمة كتاب التاريخ المدرسي مرحلة التجاذب السياسي والطائفي، حتى بات لدى غالبية التربويين اللبنانيين انطباع عام أن الأزمة باتت صعبة الحل بسبب تقاطع مصالح قوى محلية - داخل السلطة وخارجها - لا تريد حلولاً لهذه الأزمة. من تلك القوى: مؤسسات تربوية طائفية ترتاح لتدريس تاريخ طوائفها على هواها، ودور نشر محلية وأوروبية تجني أرباحاً كثيرة من بيع كتاب التاريخ المدرسي. وتخشى وزارة التربية الوطنية والمؤسسات التابعة لها من أن ينعكس قرارٌ توحيد كتاب التاريخ المدرسي على علاقتها بالمؤسسات التربوية الخاصة فيفُرض فقط على المدارس الرسمية. ثم إن فئة واسعة من التربويين اللبنانيين ترى أن توحيد الكتاب المدرسي يتناقض جذرياً مع الدستور اللبناني الذي نص على حرية التعليم في لبنان. ومنهم من رأى أن توحيد كتاب التاريخ المدرسي لا يعني حكماً إصدار كتاب واحد أو سلسلة واحدة، وأن من واجب الوزارة توحيد المناهج والبرامج والامتحانات وتشكيل لجنة عليا للإشراف على التأليف، ويمكن أن تتيح إصدار سلسلتين أو أكثر من كتاب التاريخ المدرسي بفرضها شروطاً علمية قاسية لمراقبة عملية التوثيق والتأليف والمادة التاريخية والصور والطباعة وحجم المادة وكيفية إخراجها وأسئلة الاستثمار التربوي وغيرها.

رابعاً:

مخاطر التدريس العشوائي لكتب التاريخ في المرحلة الراهنة

خيال الخلل السائد في مناهج التدريس وتقاعس وزارة التربية والتعليم العالي عن متابعة تطبيقها في المدارس الرسمية والخاصة، عجزت الوزارة عن فرض رقابة مباشرة على كتاب التاريخ المدرسي وفق نصوص قانونية تعطيها سلطة تصويب الخلل في الكتب المدرسية أو في التطبيق العملي لمنع الفتنة بين التلامذة اللبنانيين. كل ما فعلت أنها اكتفت بتنبية المسؤولين التربويين إلى توخي الحذر في تدريس مادة التاريخ، والعمل على خلق مناخ تربوي توحيدي يساهم في تعزيز الوحدة الوطنية، وتفعيل دور المدرسة في خلق قيم وطنية موحدة تساعد المجتمع اللبناني على الخروج من أزمته.

محتوى قديم بخُلة جديدة (!؟)

لدى التوقيف القسري للتدريس في كتب التاريخ الموحدة التي أعدها المركز التربوي للبحوث والإنماء، وفي سلسلة كتاب التاريخ المدرسي

الوطني القديم الصادر عن المركز قبل صدور القرار الرسمي بمنع تدريس مادة التاريخ، تنافست دُور نُشر في لبنان على إصدار كتب للتاريخ بمحتوى قديم وحُلة جديدة. ومعظمها لم ينشر كتب التاريخ للحلفتين الأولى والثانية من مرحلة التعليم الأساسي. ودرجَ تدريس التاريخ في مدارس عدة دون احترام المنهج الرسمي في جميع الصفوف عدا صفوف الشهادات الرسمية التي يتقدم طلابها للامتحان الرسمي. اعتمدت هذا الأسلوب: مدارس جمعية المقاصد الإسلامية ومدارس المبرات الخيرية الشيعية ومدارس المصطفى (تدرّس كتاب «نحن والتاريخ») والمدارس الأرمنية ومدارس الإرساليات الأجنبية ومدارس خاصة محلية. وفي غياب الرقابة المركزية وغياب كتاب التاريخ المدرسي المؤخّذ صدرت سلاسل لتدريس التاريخ دون رقابة من الوزارة. وثمة مدارس تدرس التاريخ بالفرنسية أو الإنكليزية أو الأرمنية وغيرها، وكتب أخرى لقوميات على الأراضي اللبنانية لها مدارسها الخاصة وتدرّس تاريخ شعوبها إلى جانب تاريخ لبنان.

توحيد كتاب التاريخ المدرسي: مواقف متناقضة

تدريس مادة التاريخ في كتاب مدرسي مؤخّذ واجه صعوبات أدت إلى منع تداوله قبل استكمال عملية التأليف والنشر، فاتخذت ذرائع واهية لعملية التعتيل إذ كان يمكن قيام لجان علمية مختصة بتثذيب الكتاب من الثغرات، لكن تدابير وزارة التربية بوقف الكتاب ومنع تداوله ساهمت في وقف تدريس مادة التاريخ، ما جعل باحثين متخصصين بمشكلات كتاب التاريخ المدرسي المؤخّذ يتساءلون عن الأسباب الحقيقية التي دفعت وزير التربية إلى تجميده لأجل غير مسمى.

أزمة كتاب التاريخ المدرسي المؤخّذ في لبنان باتت معقّدة جدًّا، يحتاج الخروج منها إلى جهود علمية وتربوية مشتركة وإلى قرار سياسي جريء لإعادة تدريس مادة التاريخ في المدارس اللبنانية. وبمشاركتي في لجنة علمية أنشأها المركز التربوي للبحوث والإنماء لإعداد منهاج جديد لمادة التاريخ يمهّد لإصدار كتاب التاريخ المدرسي المؤخّذ، أرى أن الخروج من الأزمة يتطلب حُكمًا حلاً توافقياً على المستوى السياسي. فلا يمكن إصدار أي قرار بفرض كتاب مدرسي مؤخّذ لأنه يتعارض مع أحكام الدستور اللبناني الذي أقر صراحة بأن التعليم في لبنان حر شرط ألاّ يسئ إلى أي من الجماعات اللبنانية. لكن القرار السياسي التوافقي وحده لن ينتج كتاب تاريخ مدرسي مؤخّذ بل تجب مراعاة الحقائق التاريخية علمياً، وتقديمها للتلامذة بأفضل الطرق التربوية الحديثة، وفق أربع سماتٍ رئيسة هي:

١. تَوْخِي الموضوعية في البحث العلمي عن الحقائق التاريخية

يرتكز علم التاريخ في منهجيته وأدواته المعرفية إلى الموضوعية في البحث عن الحقائق التاريخية، تجنباً إسقاط الماضي على الحاضر أو الحاضر على الماضي. والكتابة التاريخية تستند إلى علوم مساعدة التاريخ، كالجغرافيا والسياسة وعلم الاجتماع والاقتصاد وعلوم الآثار والمسكوكات والأختام والأنساب واللغات وعلوم أخرى تتطور مع تطور العلوم العصرية. ولا يمكن مؤلف كتاب التاريخ المدرسي تجاهل التطور المستمر في مناهج البحث التاريخي للكشف عن الحقائق التاريخية ودورها في بناء المواطن اللبناني. فالتاريخ سجل حافل بكل نشاطات الناس المادية والروحية والثقافية. والكتابة التاريخية لا تقتصر على عرض متغيرات تطرأ على الحدود الجغرافية والهجرات السكانية والتبدلات الاقتصادية والاجتماعية داخل كل بلد بل تتسع إلى التاريخ الإقليمي والشامل بأبعاده الحضارية والإنسانية. ومن أوّل واجبات المؤرخ الموضوعي أن يجمع الوثائق والمستندات المكتوبة والشفوية والمادية من مصادرها الأصلية. فهي إرث تاريخي مهم للتعرف على نشأة المجتمعات وتطورها، وتالياً على دراسة التاريخ أن تتناول الظواهر والإنجازات الحضارية للمجتمعات البشرية بمختلف تجلياتها السياسية والإدارية والعسكرية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية. من هنا دور الكتابة التاريخية العلمية في التواصل بين الأجيال والإفادة من دروس الماضي لبناء مستقبل أفضل.

٢. تحديد الأهداف التربوية العامة لكتاب التاريخ المدرسي

كتاب التاريخ المدرسي الموحد يسهم في تنمية روح البحث العلمي بالتعرف إلى الوقائع التاريخية، ويساعد المتعلم على الفهم والتحليل والتعليل والنقد والتوليف والتقويم واكتساب المهارات العلمية وإدراك مفهوم الزمن وتسلسله للتمييز بين الماضي والحاضر وتحليل الفعل الإنساني في سياقه التاريخي. وهو ينشط الذاكرة بأحداث الماضي ويساعد على إدراك أبعاد التفاعل الحضاري بين مختلف الشعوب بمعزل عن فوارق اللون والجنس والدين والثقافة، كما يُبرز عناصر التواصل بين المنجزات الحضارية، وتنمية الروح المدنية والقيم الأخلاقية، ويكسب المتعلم متعة التعرف إلى أحداث الماضي من خلال القصص البطولية والطرائف والمرويات السردية وتنمية الخيال والتمتع بالأساطير القديمة ودراسة تطور الأديان والنظم السياسية وغيرها.

٣. تنمية الروح الوطنية وحس الولاء للبنان

إن لكتاب التاريخ المدرسي المؤخّذ، عدا الأهداف العلمية والتربوية، أهدافاً خاصة منها تنمية الروح الوطنية لدى الأجيال المتعاقبة من اللبنانيين، وترسيخ الاعتزاز بالهوية الوطنية، وتقوية حس الولاء للبنان، والتأكيد على وحدة اللبنانيين والعيش المشترك بين طوائفهم وتعزيز الشعور بهوية لبنان الوطنية وانتمائه العربي وإبراز التراث الثقافي والحضاري المشترك بين لبنان وأشقائه العرب في مختلف الحقب التاريخية، كما يساعد على تنمية روح التضامن الوطني والعربي، وتعريف الناشئة اللبنانية بدور الحركات الإصلاحية والثورية في لبنان والدول العربية والعالم للتحرُّر من التسلط والطغيان والاستعمار، ويساعد المتعلم على الاهتمام بالشأن العام، والممارسة السياسية، وفهم العلاقة السليمة بين المواطن والسلطة وفق مبادئ الديمقراطية واحترام حقوق الإنسان وحرياته الأساسية، وينمّي لديه روح المقاومة ضد الظلم والعدوان، ومواجهة كل أشكال الاضطهاد، ويُبرز صور بطولة وتضحية وشجاعة ووفاء للأرض والشعب والوطن، فضائل زاولها اللبنانيون في مختلف حقب التاريخ. فبناء الذاكرة الوطنية تبرز أهمية التراث اللبناني المشترك ومنجزات مشتركة حقّقها لبنانيون بتضامهم وشعورهم بوحدة المصير. وتدرس مادة التاريخ علمياً يعزّز ارتباط اللبناني بجغرافيا بلده المؤخّدة. فكتاب التاريخ المؤخّذ ينطلق من الجغرافيا المؤخّدة والحدود المعترف بها دولياً كما نصّ عليها الدستور. والثقافة الوطنية الجامعة تتميز بوحدتها وغناها وتنوّع مصادرها، وبانتمائها من جهةٍ إلى الثقافة العربية، ومن جهةٍ أخرى بانفتاحها على الثقافات العالمية. وكل ذلك ينشر لدى التلاميذ اللبنانيين وعيهم على مخاطر المشروع الصهيوني ضد لبنان والمنطقة العربية بتعريفهم إلى تاريخ الحركة الصهيونية وأطماعها التوسعية باحتلالها أكثر من نصف مساحة لبنان، وارتكاب أبشع المجازر على أرضه، وتشريد شعب فلسطين واحتلال أجزاء واسعة من الأراضي العربية المجاورة لها. وكتاب التاريخ المؤخّذ يشدّد على نضال الشعب اللبناني والشعوب العربية في مقاومة الاحتلال الإسرائيلي.

٤. نشر الوعي على أهمية القيم الدينية المسيحية والإسلامية

كتاب التاريخ المدرسي المؤخّذ ينشر الوعي على أهمية القيم الدينية في لبنان، مسيحيتها والإسلامية، مصدرًا أساسيًا لنشر مبادئ أخلاق وإنسانية تتنافى وجميع أشكال الطائفية والتعصب الديني الطائفي، ويسهم في نشر الوعي على آثار سلبية تسببها النزاعات بين اللبنانيين فتعكس

على وحدة الوطن واستقراره. وهنا يبرز، نموذجًا، دور قوى أجنبية في معظم أحداث دموية عرفها لبنان منذ القرن التاسع عشر بسبب تدخل مباشر من دول خارجية على الساحة اللبنانية وفي جوارها.

موجبات توحيد المنهج في كتابة التاريخ المدرسي

في مجتمع كلبان: متعدد الطوائف والقوميات، يضمن دستوره حرية التعليم في جميع مراحله، لا يمكن توحيد هذا الكتاب إلا بالإقناع والتوافق الوطني. فكتاب التاريخ المدرسي المُوَحَّد نتاج أزمة عامة يعيشها المجتمع اللبناني منذ بداية الحرب الأهلية، ونتاج سياسة تربوية مشوّهة وَضَعَتْ لتدريس مادة التاريخ منهجًا بمعدل ساعة واحدة أسبوعيًا، وتحمل هذا المنهج مسؤولية منع تجدد الأزمة اللبنانية وتعزيز الروابط بين اللبنانيين. وهذا يتطلب معالجة عقلانية لدور كتاب التاريخ المدرسي المُوَحَّد في سياق الوحدة الوطنية.

من هنا ضرورة الأخذ بما يلي:

أولاً: التاريخ عملاً معرفيًا هو فعل اختيار ومسؤولية مشتركة بين وزارة التربية الوطنية ومؤسساتها المعنية، ومؤرخين يكتبون تاريخ لبنان والعرب والعالم، ومؤلفي كتب التاريخ المدرسي ومدرّسي المادة، والمسؤولين التربويين، ودور النشر، ولجان الرقابة، ولجان الامتحانات وغيرها.

ثانيًا: بلوغًا إلى نص تاريخي علمي يجهد المؤرخون والمؤلفون والتربويون لتحديد معرفة تاريخية تؤسس لثقافة تاريخية توحد المجتمع اللبناني ولا تزيد من تشرذمه، ورؤية القيم الخلقية وكيفية نقلها إلى التلميذ، وطرائق التدريس الملائمة، ونظام الامتحانات.

ثالثًا: ضرورة التمييز بين المنهج المُوَحَّد والكتاب المُوَحَّد، والتنبه إلى مخاطر الدمج بينهما. فالدستور اللبناني نصّ على حرية التعليم دون أن تفرض وزارة التربية، خلال تاريخها الطويل، أيّ كتاب مدرسي موحد إلا كتاب التربية الوطنية الذي صدر قبل سنوات قليلة وفيه أفكارٌ مثالية لا تثير حساسية أحد. من هنا أن توحيد كتاب التاريخ المدرسي مسألة صعبة وخطرة في آن، لأنه يتعارض مع تاريخ التعليم في لبنان، ومع خطة النهوض التربوي (١٩٩٤)، ومع حرية ثقافة تسود في وسائل الإعلام المرئية والمسموعة والمكتوبة. لذا لم تكن فكرة توحيد الكتاب المدرسي مألوفة لدى التربويين اللبنانيين قبل اتفاق الطائف، وهي وُضِعَتْ لتعزيز التضامن الداخلي والوفاق الوطني.

رابعاً: توحيد الكتاب المدرسي تحت وطأة هاجس سياسي في لبنان، ظاهرة جديدة في تاريخ التعليم لأنه ليس مبنياً على موجبات علمية وتربوية ووطنية بل سياسية وإيديولوجية. وما لم يحصّن بالوفاق الوطني والإقناع فقد ترفضه مدارس كثيرة من مواقع مختلفة طائفية وسياسية وثقافية وتربوية وتجارية. وحده الوفاق الوطني يوحد كتاب التاريخ المدرسي إلى جانب كتب مدرسية أخرى. فليس صحيحاً أن كتاب التاريخ كان سبباً للنزاعات الدموية في لبنان، وسوف يكون توحيد - تعسفاً - مدخلاً إلى خلاف إضافي بين اللبنانيين. وتوحيد كتاب التاريخ المدرسي - خارج متطلبات الوفاق الوطني الشامل وانخراط جميع اللبنانيين في بناء الدولة العصرية - سينتج شعوراً بالإحباط لدى التربويين والمدرّسين، وسينعكس سلباً على التلامذة، ولا سلطة لوزارة التربية في فرضه على المدارس الخاصة لأن التعليم الخاص يحميه الدستور اللبناني ضامناً أساسياً لثقافة التنوع والتعددية التي يفاخر بها اللبنانيون.

خامساً: فكرة توحيد كتاب التاريخ المدرسي وُلدت في سياق العمل على توحيد مجتمع لبناني شردمته الحرب الأهلية الطويلة، ولا يمكن أن تطبق توحيد إدارة مركزية تستخدم القمع التعسفي للتحكم بقواعد تأليف ونشر وتوزيع الكتاب المدرسي. وللمركز التربوي للبحوث والإنماء صلاحيات واسعة في مجال تأليف وطباعة ونشر كتاب التاريخ المدرسي وتوزيعه على التلاميذ مجاناً أو بأسعار مخفضة جداً. غير أن احتكار المركز ولجانه عملية التأليف والنشر قد تثير أزمة حادة إذ لم يسبق للمدارس اللبنانية أن تبنت كتاباً مدرسياً واحداً. من هنا أن الصيغة المثلى هي تشكيل لجان علمية متخصصة لمراقبة تأليف كتاب التاريخ المدرسي وفق شروط علمية دقيقة، فلا يُجاز نشر أي كتاب تاريخ لا تنطبق عليه مواصفات الموضوعية ومراعاة الحساسيات الطائفية أثناء تعليم المادة، وفرض عقوبات صارمة على أي مؤسسة تربوية تخالف نص الدستور الضامن حرية التعليم شرط عدم المساس بمشاعر اللبنانيين.

التوحيد غير الفرض القسري

توحيد كتاب التاريخ المدرسي لا يعني تقديم وجهة نظر إحدى من وزارة التربية الوطنية ومؤسساتها الرسمية. فلا يمكن كتاب التاريخ الموحد أن يكون المصدر الوحيد للمعرفة التاريخية في المدارس اللبنانية، ولا تستطيع وزارة التربية منع المدارس الخاصة من استخدام كتب أخرى، بعضها مستورد من خارج لبنان لتدريسها في مدارسها كما هو الوضع

الراهن. فعلى الكتاب المدرسي أن يراعي تعددية الفكر والرأي، وعدم تقديس حرفية مضمونه أو موضوعاته. فلدى عدد كبير من المؤلفين إمكانيات كبيرة للاجتهاد الايجابي مع مراعاة ما ورد في المنهج وتنوع في الموضوعات الاجتماعية والثقافية والحضارية والعلمية وغيرها.

خاتمة

التوافق الوطني لتوحيد كتاب التاريخ المدرسي في لبنان حاجة ماسة وملحة. فالفكرة ولدت في جوّ مناخ توافقي أفضى إلى وثيقة الوفاق الوطني (اتفاق الطائف) وينتظر اللبنانيون تنفيذ بنودها كاملة لأنها تضمّنت إصلاحات سياسية واقتصادية واجتماعية وتربوية متكاملة لبناء دولة العدالة الاجتماعية في لبنان تسعى إلى تحقيق التنمية البشرية والاقتصادية المستدامة، وتستند إلى مؤسسات عصرية متطورة باستمرار. لذا فغياب (أو تغييب) كتاب التاريخ المدرسي المُوَحَّد يفضي حتماً إلى عدم تكافؤ الفرص التربوية بين التلامذة اللبنانيين، ويؤدي إلى نشوء أنماط تنشئة طائفية تنسف ركائز المواطنة لصالح القوى الطائفية والمذهبية المتناحرة. ولا يمكن فرضه قسراً على آلاف معلمين في المدارس الرسمية والخاصة مشبعين بالمواقف السياسية والطائفية.

في غياب سياسة توحيدية للدولة المركزية في لبنان يبقى النظام التعليمي ضامناً أساسياً لتجديد النظام السياسي المأزوم. ويستحيل أن تستمر الدولة اللبنانية في اعتماد سياسة توفيقية تلفيقية تحت ستار خادع من وطنية مشبعة بالطائفية والمذهبية. وعلى قوى التغيير الديمقراطي تطوير نضالها السياسي والثقافي والتربوي لتنمية ولاء وطني جامع بين اللبنانيين، وكتابة ساطعة لتاريخ لبنان خارج القيد الطائفي.

طرابلس ذات «السيْلَمَا»: مدينة سبّاقة إلى تراث سبّاق

هادي زكّك

مخرج سينمائي

للسينما في لبنان مطالع يتفرد بها بين دول الجوار، بما كان له من مبادرات سبّاقة، في صالات السينما أو حتى في إنتاج أفلام لبنانية كانت، على بدائية نسجها وتصويرها وتمثيلها، رائدة سجلت أعمالاً ما زالت حتى اليوم مراجع لتاريخ السينما في الشرق العربي. هادي زكّك، المخرج الذي سطع اسمه في لبنان بأفلام وثائقية وروائية، أصدر كتابه «العرض الأخير – سيرة سيْلَمَا طرابلس» جاء، كأفلامه المؤثقة، وثيقة بالنص والصّور لتأريخ الحالة السينمائية في المدينة.

هنا نبذة منه خصّ بها، مشكوراً، «مرايا التراث» عن تلك المطالع السينمائية في مدينتنا الغالية طرابلس.

مع ظهور السينما في أواخر القرن التاسع عشر، كان جمهور طرابلس يتابع أشكالاً مختلفة من فنون شعبية تقترب في بعض نواحيها من العرض السينمائي. أتوقف هنا عند بعضها: روابط القرابة بين السينما والحكواتي، مسرح خيال الظل، وصندوق الفرجة ومطالع العروض السينمائية.

أ- الحكواتي

يصل «المُشاهدون» إلى المقهى الشعبي، خلال ليالي شهر رمضان، أو في الأيام العادية بعد الانتهاء من العمل في المدينة أو في الميناء.

الكلّ في انتظار قصّة الأمسية أو حلقة اليوم من «المسلسل»، ففي «السجل» قصصٌ قد تمزج لحظات من الحبّ والحرب. تتلاحق العناوين: عنتره وعبلة، الزير سالم، أبو زيد الهلالي، الملك سيّف بن ذي يزن، الملك

الظاهر وأساطير معاركه... والمسؤولية هنا على شخص الحكواتي: الشخصية الأساسية في هذا المشهد، لنقل «المُشاهدين» إلى عالم يمتزج فيه التاريخ بالأساطير.

كيف يُنجز الحكواتي مهمته؟ وما هي تقنيّاته «الإخراجيّة»؟

يتربّع الحكواتي على كرسيّ عالٍ، ويكون لنبرة صوته دور أساسي في تكوين الصورة، وإحداث التشويق، وتسريع الإيقاع عند اشتداد المعارك، وتخفيفه في اللحظات الرومانسيّة. فالحكواتي «مُخرج» المشهد. يحرك يديه للوصف ولضبط سرد القصّة. قد يستعمل العصا أو الخيزرانة أو السيف في مشاهد القتال. وفيما يبلغ الحدث ذروته، قد يقطع الحكاية معتمداً على تقنيّة شهرزاد في «ألف ليلة وليلة»، كأنّه يُخرج مسلسلاً، فالتنمّة في الحلقة المقبلة.

خلال هذا المشهد في المقهى الشعبيّ يتفاعل مع هذا العرض المباشر جمهورٌ هو طبعاً من الرجال. فكلّما قام الحكواتي بسرد المعارك، زادت الحماسة والتأييد للبطل/القبضاي في مواجهته خصومه التاريخيّين أو الأسطوريّين. وعند مضاعفة الخطر، قد يلجأ الحكواتي إلى السباب والشتائم بحق أعداء البطل، بلوغاً إلى تصفيق الحضور عند نجاح هذا القبضاي/القدوة بمهمّته.

وتنتهي الأمسية بأن يعود الرجال إلى منازلهم بانتظار الحلقة المقبلة، أو حكاية جديدة من التاريخ العربيّ، ويغادر الحكواتي المقهى عائداً إلى «عبلّة» ليعبّر لها عن حبّه.

٢- خيال الظلّ

هذا المشهد («مسرح خيال الظلّ») يدور أيضاً في المقهى الشعبيّ، إجمالاً في فصل الشتاء، وقد ينتقل صيفاً إلى مقهى التلّ العالي، مثلاً، (قهوة التلّ العليا) ويتخذ أهميّة مضاعفة خلال شهر رمضان.

تُطفأ الأضواء وتُثارُ شموع أو قنديل خلف شاشة بيضاء، فيظهر ظلّ شخصيّات تُشبه الدمى («كراكوزعيواظ» بالتركيّة أو «قره كوز») يحركها الحاجّ محمود الحارس المعروف بـ«الكراكيزي»^١. ويرتبط هذا اللقب باسم

(١) بين من تحدث عن فنّ «خيال الظلّ»: محمّد نور الدين عارف ميقاتي في كتابه «طرابلس في النصف الأوّل من القرن العشرين»، دار الإنشاء، طرابلس ١٩٧٨، وفيه تناول بالتفصيل سيرة الحاجّ محمود الحارس «أحد عباقرة العقد الأوّل من القرن العشرين»، ويذكر أنّ كلّ فصل من الحكاية المعروضة يبدأ بموأل يُشده أحد المغنّين.

«كراكوز» (أو كريكوز): أحد أشخاص العرض، وينضم إليه عيواظ، طرمان، قاشقو آغا، بكري مصطفى، أبو يانطوبو الحاخام اليهودي، والمدلل وغيرهم من شخصيات تمثل أطباعاً مختلفة من البشر. ويبرع الحاج محمود بتغيير صوته ليجسد كل واحدة منها بحيث يتحوّل، في آن واحد، إلى مُخرج العمل وممثل يؤدي جميع الأدوار. وهو أيضاً كاتب السيناريو والحوار، يتناول قضايا تهتم الجمهور وتتعلق بالمدينة وبمشاكل الحياة اليومية، وقد يصل إلى انتقاد الحكام بأسلوب هزلي أمام جمهور متنوّع.

لا يغيب الحسّ الإنتاجي عن «الكراكيزي»، فيضع ما يمكن اعتباره «فاصلاً إعلانياً» تُروّج فيه شخصيات (مثل كراكوز وعيواظ) لبعض المحال التجارية في المدينة أو لبعض المنتجات من مأكولات وبضاعة مختلفة. وفي الختام تُطفأ الشاشة البيضاء ويعود الضوء إلى المقهى وسط تصفيق الجمهور كباراً وصغاراً. هنا بعض ما جاء في نص سالم كِبارة^٢ الذي دوّن مذكراته لاحقاً: «... وأذكر أننا كنّا نتردد على مقهى التل العالي (قهوة التل العليا) لمشاهدة مسرح الدمى الذي كان يديره الحاج محمود الكراكيزي. وكان الحاج محمود أديباً حلو الحديث، حاضر البديهة، هو يكتب الحوار ويدير الدمى ويحرّكها ويتحدّث بأصوات مختلفة تتناسب مع الشخصيات التي تمثّلها، وكانت موهبته في ذلك عظيمة. كان يشاهد مسرحه الوحيد في المدينة آنذاك فئات مختلفة من الأهالي بينهم المشايخ والتجار والمتعلّمون. أما صغار السنّ فكانوا يتجمعون في الصفوف الأمامية ويبدون دهشتهم وفرحتهم بما يشاهدون»^٣.

٣- صندوق الفرجة

يدخل «أبو حشيشة» إلى أحد الأحياء في طرابلس وهو يغني، حاملاً صندوق الفرجة الأزرق فيقترب منه الأولاد. نتوقّف عند شهادة الرسّام فضل زيادة: «(كان يأتي) (أبو حشيشة) صاحب صندوق الفرجة فيقف في مدخل البناية الواسع صباح كل يوم أحد ويبدأ بالغناء.

تعا تفرّج يا سلام

على الزير سالم يا سلام

(٢) المحامي سالم كِبارة (١٩٠٥-١٩٩٤)، من مواليد طرابلس، ونائب عنها في دورتين متتاليتين (١٩٦٤ و ١٩٦٨).

(٣) سالم كِبارة، طرابلس في ذاكرة الوطن، دار النهار ومؤسسة سالم كِبارة الاجتماعية، بيروت ٢٠١٤، ص ٥٥-٥٦.

على عنتر وعيلة يا سلام

على شمشوم ودليلة يا سلام

ولا يكاد ينتهي من غنائه حتّى نكون نزلنا إلى مدخل البناية حيث يكون واضعاً مقعداً خشبياً طويلاً نجلس عليه، وأمامنا صندوق الفرجة الذي كان مزيناً بقطع الزجاج والمرايا والنحاس والخرز الأزرق. يطلب منا النظر إلى نافذة صغيرة عليها زجاجة، ويبدأ بتحريك شريط يحتوي على صور هؤلاء الأبطال وكان يأخذ خمسة قروش (فرنك) أو رغيف خبز أجرة ذلك.»^٤

في أحد أحياء الميناء يتكرّر المشهد نفسه. والكاتب جان عبدالله توما، يُقارن صاحب الصندوق، بـ«راجح» الرحباني الذي يأتي من «خلف الأمنيات حاملاً معه صندوق الأحلام»^٥. وراجح كان الشخصية المُتَخَيِّلة الذي يواجهها المختار ليؤكد على بطولاته أمام سكّان القرية في مسرحيّة الأخوين رحباني «بيّاع الخواتم» (١٩٦٤) وهي تحوّلت فيلماً من إخراج يوسف شاهين (١٩٦٥).

يتجمّع الأولاد حول صندوق الفرجة وينتظرون الحكايات والأساطير، كما سكّان القرية الرحبانية يتابعون مغامرات المختار المشوّقة.

«كنا نجلس ثلاثة على المقعد. يضع كلّ واحد منّا عيناً واحدة (...). تكون عتمة في الداخل ثم يهل نور وتتعاقب صور كلّما حرّك «راجح» يده



صندوق الفرجة في طرابلس - تصوير جوزيف توفيق سلامه - أرشيف كميل سلامه

(٤) فضل زيادة، طرابلس... أمّ أحمد أمّ أنطون وقصّتي مع الفنون، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، ٢٠١٣، ص ٦٥-٦٦.

(٥) جان عبدالله توما، يوميّات مدينة، دار الإنشاء للصحافة والطباعة والنشر، طرابلس، ٢٠٠١، ص ٣٩.

على «المانيفيل» لتمرّ صور تنقلنا إلى عالم خارج أسوار المدينة وخارج أجسادنا.»^٦

في نهاية العرض، يبدأ الأولاد بالغناء:

أبو حشيشة، أبو حشيشة حشّلو

دقنه طويلة قصّلو

يُخرج صاحب الصندوق دمية تمثّل رجلاً هزياً هو أبو حشيشة الذي يحيي الأولاد وسط بهجة عارمة.



طرابلس، ساحة التلّ وفي الخلفيّة، وراء الساعة: مسرح الإنجا

٤- المسرح

عرفت طرابلس المسرح في النصف الآخر من القرن التاسع عشر. بدأت أعمال تُعرض في أماكن عدّة، من بهو الكنيسة إلى باحة المدرسة وصولاً إلى المسارح الأولى، وأهمّها مسرح «الإنجا». ثمّ جاءت صالات السينما وكان استعمال بعضها مزدوجاً، فتعرض الصالة ذاتها مسرحيّات وأفلاماً. وعرفت الحركة المسرحيّة بعد ذلك تطوُّراً في القرن العشرين مع بروز فرق مسرحيّة محليّة، وعروض لفرق مصريّة وأجنبيّة.^٧

(٦) المصدر نفسه.

(٧) لتفاصيل أخرى عن تاريخ المسرح في طرابلس وشمال لبنان: كتاب د. نزيه كباره، «المسرح في لبنان الشمالي منذ نشأته حتى نهاية القرن العشرين»، جروس برس، طرابلس، ١٩٩٨.

٥- السينما

مع اختراع الأخوين لوميير Lumière آلة السينما توغراف، وانطلاق أول العروض السينمائية سنة ١٨٩٥، بدأ الاختراع ينتشر ويثير دهشة المُشاهدين. وأرسل الأخوان لوميير مصوِّرين إلى أنحاء العالم، فأصبحت السينما سريعاً نافذةً لاكتشاف البلدان والشعوب والطبيعة.

بين أولى المدن المصوَّرة، ظهرت بيروت سينماتوغرافياً لأول مرة في فيلم صوره ألكسندر بروميو Alexandre Promio (أحد مصوِّري لوميير البارزين) في نيسان ١٨٩٧ وتضمَّن لقطات عن ساحة البرج (ساحة الشهداء حالياً). ولاحقاً جاء بعض الوجهاء بآلات سينماتوغراف كانت تعرض الصور المتحرّكة على شاشة بيضاء داخل المقاهي.

يذكر الأديب الطرابلسي نسيم خلاط في كتابه «سياحة في غربي أوروبا» (أصدرته دار «المقتطف» في مصر عام ١٩٠١) أنّه حين زار لندن دُهِش بمناظر السينما توغراف «الفن الحديث النشأة»، لكنّه عند وصوله إلى لبنان وجد أنّ السينما توغراف سبقه إلى مصيفه في إهدن ويعرض ما كان يُسمّى بالمناظر.^٨

هذا العرض المتفرّق للمناظر السينما توغرافية استمرّ خاصةً في بيروت. وأحضر توفيق نوفل آلة للسينماتوغراف إلى «المرسح الجديد» الملاصق لقهوة «كوكب الشرق»، «عرض بها وقائع تاريخيّة ومناظر طبيعيّة وحوادث فريدة» كما ذكرت جريدة لسان الحال سنة ١٩٠٨.^٩

ماذا عن عرض هذه الصور المتحرّكة في طرابلس؟

كانت طرابلس تعرّفت على التصوير الفوتوغرافي منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر وجذبت إليها مصوِّرين مستشرقين. ثمّ بدأت الصور تتحرّك في نهاية القرن التاسع عشر.

عن محمّد نور الدين عارف ميقاتي أنّ السينما لم تدخل حياة المدينة إلّا سنة ١٩١٠، واقتصرت على مشاهد الحيوانات والمناظر الطبيعيّة

(٨) في دراسة محسن أ. يمين: «السينما في زغرتا» إشارة إلى بدايات السينما في طرابلس.

(٩) غسان تويني-فارس ساسين، البرج ساحة الحرّة وبوابة المشرق، دار النهار، بيروت، ٢٠٠٠، ص ٢١٤.

والزلازل.^{١٠} ويذكر سالم كِبّارة أنّ جماعة من الإنكليز هم الذين أدخلوا السينما إلى طرابلس.^{١١}

وإضافة إلى الحكواتي ومسرح خيال الظلّ، بدأت آلات العرض السينمائي تأخذ مكانها في المقاهي (في مقهى «العقّادين» جرى أوّل عرض سينمائيّ، وفي مقهى «الرّمّانة» برزت الراقصة اليونانيّة كريستين...) وكانت تدار بواسطة الفحم الحجريّ.

يذكر صفوح منجّد مشاكل كانت تحدث من جرّاء استعمال الفحم: «... ولأنّها كانت تدار بواسطة الفحم الحجري، غالباً ما كانت الإضاءة تخفّ أو يتوقّف العرض لبضع الوقت، فترتفع أصوات من هنا وهناك داخل المقهى أو صالة العرض: «حطّ فحم» أو «حطّولو فحمة». وهو تعبير شاع استعماله حتّى بعد استخدام الكهرباء، اعتاد عليه الجمهور كلّما ضعف التيار أو انقطع.»^{١٢}

ولادة «السيّما» في طرابلس

كان من انتشار العرض السينمائيّ في مقاهي الأسواق الداخليّة أن انخرطت السينما في الأوساط الشعبيّة التي أخذت تسمّيها باللهجة المحليّة: «سيّما».

اقتصر مشاهدو الـ«سيّما» على الرجال الذين أخذوا يتفاعلون مع المشاهد الصامتة. ومع دخول الأفلام الروائيّة، زاد التفاعل فأصبح التعليق يتصاعد مثلما كان يجري مع الحكواتيّ أو الكراكيزي وينتهي بالتصفيق للبطل فور إنجاز مهمّته.

يذكر طلال منجّد أنّ النظام السينمائيّ انتقل من المقاهي الداخليّة إلى مقاهي محلّة التلّ في وسط المدينة (مثل مقهى «سلطان» ومقهى «طبيعات» الصيفي)^{١٣} كأنّما ساحة التلّ كانت تتحصّر كي تتحوّل إلى مركز سينمائيّ ابتداءً من الثلاثينات، وبخاصّة بعد وصول التيار الكهربائيّ إلى

(١٠) محمّد نور الدين عارف ميقاتي، طرابلس في النصف الأوّل من القرن العشرين، دار الإنشاء. طرابلس، ١٩٧٨.

(١١) سالم كِبّارة، مصدر سابق، ص ٥٥.

(١٢) صفوح منجّد، طرابلس ذاكرة المكان والزمان، المجلس الثقافي للبنان الشمالي، ص ٥٩.

(١٣) طلال منجّد، ساحة التلّ في طرابلس- لقاء التقليد والحداثة، دار البلاد للطباعة والإعلام في الشمال، ٢٠١٤، ص ١٠٧.

طرابلس سنة ١٩٣٢. وبدأت صالات سينمائية تفتح أبوابها في منطقة التلّ، مستقطبة تجربة المُشاهدة من المقهى.

في تلك الصالات اختلفت الهندسة والزخرفة ومعالم الفخامة ونوعية الكراسي والإضاءة ووجود الستارة وكبر الشاشة والانتقال التدريجيّ من الأفلام الصامتة إلى الأفلام الناطقة. فأصبح من يدخل إلى الصالة، يسافر في المكان وأحياناً في الزمان ويعود بعد نهاية العرض إلى ساحة التلّ فيرى الساحة انفتحت أكثر على العالم. ويحدث أحياناً، عند خروج المُشاهد من الصالة، أن يلتقط صورته أحد المصوّرين المنتشرين في المدينة فيصبح المُشاهد صورة أيضاً.



المصوّرُون ينتشرون في المدينة ومن أبرزهم المصوّرُون الأرمن -
أرشيف مارلين ستافورد - ١٩٦٠





مع إدراك المنفعة التجارية من تلك الصالات الحديثة، ازدادت منذ الأربعينات إلى رقم قياسي في الخمسينات، توزعت بين منطقة التل، والأحياء الداخلية في طرابلس، وباب التبانة، والميناء.

هذا التطور يذكره خالد زيادة في كتابه «يوم الجمعة يوم الأحد»، فيسرد: «كانت السينما منذ الأربعينات والخمسينات افتتحت لها صالات واسعة ذات قدر وأناقة، خصوصاً تلك التي في وسط المدينة الحديثة. وكانت من دور العرض فئتان تمثلان درجتين متعاقبتين: الأولى تحمل غالباً أسماء أجنبية وتعرض أشرطة أوروبية وأميركية، وأخرى تحمل أسماء عربية وتعرض أفلاماً مصرية أو تعيد ما عرضته الأولى»^{١٤}.

أفراد عائلة الـ «سيلما» حملت أسماء أجنبية لصالات في بيروت أو القاهرة أو في مدن مختلفة من العالم، وجلبت العالم بأجمعه إلى المدينة، وبرزت للصالات تسميات فرنسية (أمبير، أوبرا، متروبول، بالاس، رومانس، أوديون...) في تقليد

زاد اعتماده منذ سنوات الانتداب الفرنسي واستمرّ بعد الاستقلال سنة ١٩٤٣. وانتشرت الأسماء العربية موسعةً أفق العالم الذي تمثله: دنيا، الشرق، الكواكب، ... أو أسماء نساء: سلوى، ورابحة وسميراميس...

الراديو رفيق البيوت

مقابل هذا الانتشار السينمائي، كان الراديو يتخذ أيضاً مكانةً مهمةً في الحياة اليومية والمنزلية. حول هذا ذكر خالد زيادة دور الراديو في كتابه «يوم الجمعة يوم الأحد»: «في وسط الخمسينات كانت أيام الراديو حاسمة في فكّ عزلة المدينة وانطوائها على أخبارها وقصصها وفي

(١٤) خالد زيادة، يوم الجمعة، يوم الأحد، دار النهار، بيروت ١٩٩٤، ص ١٣٢.

تبديل حثيث لعادات الليل، إذ كُيِّرَ صمت المساءات بأصوات المذيعين والمطربين التي غدت مألوفة (...). وفي الخمسينات بلغ الراديو عصره الذهبي، فكان أبرز قطع الأثاث المنزليّة إحاطة بالعناية (...). وكان الراديو وكان علامة حاسمة في اكتشاف المرأة عالمًا خارج نطاق الأسرة والمنزل، باستماعها إلى مسلسلات إذاعيّة وتسجيلات صوتية لأفلام مصريّة مواضيعها حول علاقة الحب بين المرأة والرجل»^{١٥}



أرشيف جريدة الإنشاء، ١٩٥٤



أرشيف جريدة الإنشاء، ١٩٥١ الراديو، فرد من العائلة —
أرشيف سلمى عبد القادر أدهم



صالات «سيّلا» بأسماء من بيروت

في نهاية سنة ١٩٥١، جاء في جريدة «صوت الفحاء»: «في المدينة والله الحمد عددٌ ضخم من دور السينما العامرة تزداد عددًا يومًا بعد يوم بسبب إقبال أصحاب الأموال على تشييد الدور والصالات، لما تغلّه من الأرباح الضخمة، فهي أصبحت أقرب الوسائل للإثراء السريع وامتلاك القصور واقتناء السيّارات»^{١٦}.

بعد عشر سنوات، وضع رامز المقدّم لائحةً بأسماء صالات السينما في لبنان ضمن «الدليل السينمائي للجمهورية اللبنانية (١٩٦١)» وجاءت لائحة أسماء صالات طرابلس على الشكل التالي: كاييتول، كولورادو، أمبير، متروبول، أوبرا، بالاس، ريفولي، روكسي، أوديون، رومانس، أمير، دنيا،

(١٥) خالد زيادة، المصدر نفسه، ص ٤٤.

(١٦) نقلاً عن جريدة الإنشاء في ٢٥-١٢-١٩٥١.

حمرا، ليدو، ريو، ركس، الشرق، ديانا، كواكب، نجمة، العَلَم، كليوباترا، هوليوود، رابحة، راديو وسلوى، ... ولم تكن هذه اللائحة كاملة إذ تنقصها أسماء صالات في باب التّبانة وفي الأحياء الداخليّة.

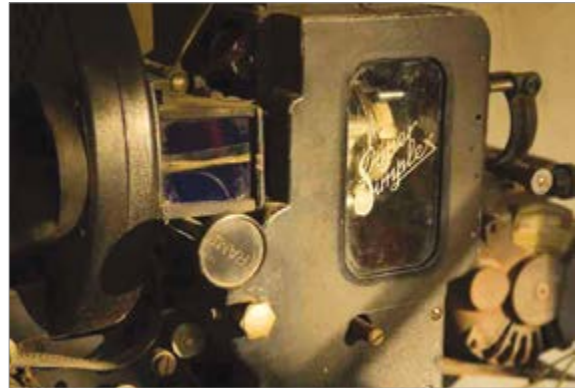
في ٨ آذار ١٩٦٣، ذكر بيانٌ صادرٌ عن دائرة الأمن العامّ أنّ عدد دور السينما في طرابلس يبلغ ٣١ ... ومن بين أسماء لم ترد في لائحة المقدّم، صالات باب التّبانة: «الأهرام» و«الأندلس» قبل أن تنضمّ إليها «بيكاديلي» و«ستاركو».

سنة ١٩٦٥ أضيفت إلى أفراد العائلة سينما «فيكتوريا» في الميناء، وظلّ عدد دور السينما في طرابلس مرتفعاً حتى اندلاع الحرب اللبنانيّة سنة ١٩٧٥.

من اللافت كيف تَوَزَّع أفراد عائلة «سيلما» في جميع أنحاء عاصمة شمال لبنان، من جميع الطبقات الاجتماعيّة، وعكست حالتها وضع المدينة واختلافه من شارع إلى آخر.

بعض أفراد عائلة الـ «سيلما» واكب التجدّد وموجات الأفلام المتنوّعة، فيما تدهورت حالة البعض الآخر. ويمكن الحديث عن تلبّن الـ «سيلما» وتحولها مواطنة طرابلسيّة شاهدة على تاريخ مدينة أحبّتها قبل أن تصل الحرب وتزعزع كيائها.

نبدأ برحلة بحث عن أفراد عائلة الـ «سيلما» من الجيل المؤسّس إلى نجومات الخمسينات فـ «سكّان» الأحياء الداخليّة وباب التّبانة والميناء. لكنّ نقطة الانطلاق هي المكان الذي شهد على عروض الحكواتيّ، ومسرح خيال الظلّ، وصولاً إلى العروض السينمائيّة في الهواء الطلق. هذا المكان هو «مقهى التلّ العالي» أو «التلّ العليا».



آلة عرض أميركيّة «سوبر سيمبلكس» للأفلام السينمائيّة (٣٥ ملم) - من مجموعة بول الدويهي

مقهى التلّ العليا بين الـ «كراكوز» والـ «سيلما»

تحضيرًا لاحتفالية «طرابلس عاصمة للثقافة العربيّة ٢٠٢٣»، دعا المجلس الثقافيّ للبنان الشماليّ إلى المشاركة في إحياء السينما الصيفيّة في مقهى التلّ العليا في ٧ أيلول ٢٠١٨.

كان جان رطل^{١٧} يشغلّ جهاز الكمبيوتر الموصول على آلة عرض فيديو متواضعة (video projector)، فيبدأ عرض فيلم «الوردة البيضاء» (١٩٣٣)^{١٨} من إخراج محمّد كريم وبطولة محمّد عبد الوهاب، المتعدّد المواهب مؤلفًا موسيقيًا ومغنيًا وممثلًا ومنتجًا. واختيار هذا الفيلم معبرٌ لأنه أوّل فيلم مصريّ ناطق بأكمله، ووضع أسسًا ستجعل السينما المصريّة تؤسس لمزيج من الأغاني والرقص في الأفلام مهما كانت أنواعها السينمائيّة. وكان «الوردة البيضاء» حاز على نجاح كبير في مصر واستمرّ عرضه في الإسكندريّة وحدها ٥٦ أسبوعًا^{١٩}

وعُرض في لبنان سنة ١٩٣٣ في «التياترو الكبير» في بيروت^{٢٠} ثمّ أعيد عرضه في سينما «رويال» بنجاح كبير، وبعدها انتقل إلى المناطق، وبينها طرابلس التي بدأت صالات فيها تتخصّص بعرض الأفلام المصريّة.

بعد ٨٥ سنة، يرتفع صوت عبد الوهاب من جديد في أنحاء مقهى التلّ العليا أمام جمهور من أجيال مختلفة، ويختلط هذا الصوت الشهير بأصوات النراجيل وماكنة البوشار (pop corn) التي استقدمت للمناسبة.



محمّد عبد الوهاب
على شاشة مقهى التلّ العليا.

١٧) كاتب ومخرج وأستاذ جامعيّ من طرابلس.

١٨) «الوردة البيضاء» (١٩٣٣) إخراج محمّد كريم وتمثيل محمّد عبد الوهاب وسميرة خلوصي.

١٩) Jacques Lévy, «L'Age d'or de la comédie musicale » en Egypte, 100 ans de cinéma- sous la direction de Magda Wassef, IMA, Editions Plume, Paris, 1995.

٢٠) مختار عيتاني وعبد اللطيف فاخوري، بيروت، الطبعة الثانية، بيروت ١٩٩٧، ص ٥٤.



عرض فيلم «الوردة البيضاء» (١٩٣٣)
في مقهى التل العليا، في ٧ أيلول ٢٠١٨.

وفي المقهى يتلهى البعض بشاشة الخلويّ، فيما البعض الآخر يواصل لعب الورق جاعلاً من الفيلم خلفيّة متحرّكة. يجلس الناس على الكراسي البلاستيكيّة الملونة (حلّت محلّ كراسي الخيزران) ويتابعون أحداث الفيلم رغم رداءة الصوت.

يُحيي صوت عبد الوهاب ذاكرة المقهى الذي شهد على المتغيّرات في طرابلس منذ القرن التاسع عشر عندما بنّته الدولة العثمانية على تلة تُشرف على طرابلس وعلى منطقة التلّ تحديداً^{٢١}. ولاحقاً أصبح المقهى (وهو وقف لعائلة المجذوب) محطةً يوميّة للبعض من سكّان المدينة.

يذكر محمّد نور الدين عارف ميقاتي أهميّة المقاهي (ومنها مقهى «التلّ العليا») في كتابه عن تاريخ طرابلس في النصف الأوّل من القرن العشرين: «كان الناس — عندما ينتهون من عملهم عصر كلّ يوم — يغلقون أبواب متاجرهم ويتوجّهون إلى المقاهي حتى غروب الشمس. وكان معظم الناس بعد الغروب يذهبون إلى بيوتهم، فيما القلّة تبقى في مقهى التلّ العالي لحضور حفلة (قره كوز)، أو في مقهى الدالاتي قرب سراي الحكومة لحضور حفلة (أبو علي أنبوا)»^{٢٢}. وكان مقهى التلّ العليا يستقبل «كراوكز وعيواظ» قبل أن يباشر لاحقاً بالعروض السينمائيّة الصيفيّة في الهواء الطلق.

في منتصف الثلاثينيّات كانت تعدد أماكن العروض في المدينة. وهودا محسن يمين يعود إلى العدد ٢٤٩ من جريدة «الدفاع» (١٣ حزيران ١٩٣٥)

٢١) محمّد بكري، «مقهى التل العليا يختزل تاريخ اللبنانيين منذ القرن التاسع عشر»، جريدة العرب، ٢-٤-٢٠١٧.

٢٢) محمّد نور الدين عارف ميقاتي، مصدر سابق، ص ٤٢.

ليذكر: «سينما» (الأمير الصيفي) كان على سطحية مقهى ماريات باشا، و«السينما الجديد» لصاحبها ميشال التويني كانت تنتقل إلى حديقة كازينو التويني الصيفية، وسينما «حلوان بالاس» أبدلت اسمها بآخر: «سينما الروكسي» فاختارت «حديقة المتني» مكاناً لعرض أشرطةها في الهواء الطلق تخفيفاً على هواة السينما من وطأة الحر الشديد.^{٢٣} ويذكر محمد بكري أن مقهى التل العليا واكب الأفلام الصامتة ومن ثم الأفلام الناطقة التي شارك فيها نجوم أمثال: إسماعيل ياسين، وليلى مراد، وفريد الأطرش^{٢٤}. ويصف لامع ميقاتي المكان: «في الصيف كان في مقهى التل العليا سينما في الهواء الطلق: حائط مدهون أبيض وكراس من القش، تجلس حيث تشاء ويمكنك تدخين أركيلة وشرب «مصقع» مع مشاهدة الفيلم.^{٢٥} يمتلئ المكان بالكراسي الخشبية، تتغير الإضاءة، نسمع صوت آلة العرض السينمائي ويظهر على الحائط الأبيض: «لوتس فيلم تقدم زكي رستم وصباح»، ويعلو تصفيق الجمهور فيما يظهر عنوان الفيلم «هذا جناه أبي»^{٢٦}. وعند ورود اسم المنتجة «آسيا» على الشاشة يتوقف رجل عن تدخين النرجيلة ويقول لرفيقه «آسيا هي المنتجة والممثلة الرائدة آسيا داغر وأصلها من لبنان، من تنورين». يأتي اسم كاتب السيناريو والمخرج «بركات» فيضيف الرجل أن المخرج هنري بركات لديه أيضاً جذور لبنانية.

تبدأ أحداث الفيلم في طنطا سنة ١٩٢٥. يمر مدير المقهى سعد الله عابدين قرب الشاشة. يتناول البعض من الجمهور وجبة العشاء ويحتسي البعض الآخر الكازوزة. في زاوية أخرى من المقهى، تدور حلقة نقاش حول أفكار اجتماعية واقتصادية. يُعاد في المقهى عرض أفلام مصرية (أو هندية) عرضتها الصالات الكبرى وحتى الصغرى، فكأننا في عرض ثالث أو رابع. لكن تجربة السينما في الهواء الطلق تختلف وتبدو بمثابة جمعة عائلية تختلط فيها موسيقى الفيلم بأصوات الناس وصراخ الأولاد. فالعرض بحد ذاته يستحق أن يكون فيلماً.

(٢٣) محسن أ. يمين، السينما في زغرتا.

(٢٤) محمد بكري، مصدر سابق.

(٢٥) لامع ميقاتي، من ساحة التل إلى الحي اللاتيني، منشورات مؤسسة شاعر الفيحاء سبابا زريق الثقافية، دار البلاد، طرابلس، ٢٠١٧، ص ٩٧.

(٢٦) «هذا جناه أبي» (١٩٤٥) إخراج هنري بركات وتمثيل زكي رستم، صباح، سراج منير.

كان والد فائق حميصي يقف أمام الباب لقطع البطاقات، فيطلب منه فائق أن يجلب الفيلم الشهير «أبو حلموس» (١٩٤٧)^{٢٧} وكان شاهده مع إخوته. يستأجر الوالد الفيلم من بيروت ويعرضه في مقهى التل العليا ومع أنّ الفيلم يتحدّث عن شخص منحوس، يلاقي «أبو حلموس» نجاحًا خلال العرض الصيفي فيشعر فائق بالفخر «لمشاركته» في إنجاز هذا النجاح^{٢٨}. ويذكر جان رطل عرض الفيلم التالي «غزل البنات» (١٩٤٩) من إخراج أنور وجدي فيعود نجيب الريحاني وليلى مراد إلى مقهى التل العليا بعد أكثر من ستين سنة. «وتسمع صالات السينما المتقاعدة والمنتشرة في وسط المدينة على ساحة التل وفي محيطها، أحياناً مألوفة آتية من مقهى التل العليا فتستيقظ برهة لتشاركنا بعض المحطّات من سيرة ذاتيّة فرديّة وجماعيّة (...)».

٢٧) «أبو حلموس» (١٩٤٧) إخراج إبراهيم حلمي وتمثيل نجيب الريحاني وزوزو شكيب.

٢٨) مقابلة مع المخرج والممثل الإيمائي فائق حميصي، بيروت في ١٣-١١-٢٠١٧.

المرأة اللبنانية: ريادة ساطعة في لبنان والشرق

ندين عراجي

محامية، دبلوم دراسات عليا في التاريخ



ابراهيم باشا

جذورُ نَحْدِي المرأةِ البيروتيةِ الأعرافَ والتقاليدَ وتحصيلَ العلم ترقى إلى مطالع ثورة ثقافية وتعليمية أطلقها في بيروت الحُكْمُ المصري (١٨٢٢-١٨٤٠). قبلَ ذلك كان النظام التعليمي ضعيفاً حيالَ المنهاج العثماني المتردّي، فإذا بببيروت، مع الحملة المصرية بقيادة ابراهيم باشا، تُشهد نهضة تعليمية لدعم القوة العسكرية وتحديث الدولة كما حقّقها في مصر والدّه محمد علي باشا.

أنشأ ابراهيم باشا مدارس حكومية عُرفت بـ«الجهادية» فعمّ التعليم الابتدائي المجاني على نفقة الحكومة التي كانت تقدّم الكتب العربية^١. واستقطبت المدارسُ أبناءَ المسلمين لتُحرّكَ فيهم مشاعر العروبة ضد السلطنة العثمانية.

وصول الإرساليات

إبان ذاك الحُكْمُ المصري ازداد اهتمامُ الدول الأوروبية بببيروت، ما انعكس في اهتمام البيروتي بالعادات والتقاليد الأوروبية. وتزايد عددُ الأوروبيين في بيروت إلى جانب أفراد الجيش المصري، والتحق أبناء المسيحيين بمدارس تبشيرية أجنبية نشطت حتى نهاية الحُكْمُ المصري

(١) أسد رستم، المحفوظات الملكية المصرية، بيان بوثائق الشام، ج٢، ص ٦٩.

(١٨٤٠) فتنامي التنافس الأوروبي عبر تلك الإرساليات التبشيرية. كانت فرنسا أولى دُول فرضت وجودها في بيروت وجبل لبنان، نافستها الإرساليات الإنجيلية البروتستانتية من إنكلترا وألمانيا فالولايات المتحدة الأميركية، ثم الإرساليات الإيطالية شبيهة الإرساليات الفرنسية تبشيراً بالكثلكة^٢. سوى أن هدف الإرساليات - تحت ستارة التبشير - كان استغلال المسيحيين فالمسلمين العرب في ربطهم بالثقافة الغربية لإثارتهم ضد الدولة العثمانية^٣.

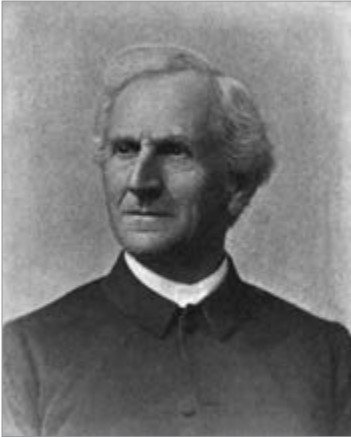


سارة سميث

تلك الإرساليات التبشيرية بدأت اهتمامها بالفتاة البيروتية مع سارة سميث (زوجة المُرسَل الدكتور إيلي سميث) إذ أنشأت سنة ١٨٣٥ «مدرسة بيروت للبنات» كانت أول مدرسة لتعليم البنات في بيروت وسائر الولايات العثمانية. ثم كانت المأثرة الكبرى بتأسيس القس دانيال بُلِس «الكلية السورية الإنجيلية» سنة ١٨٦٦ (الجامعة الأميركية منذ ١٩٢١) أولاً في زقاق البلاط ثم انتقل بها إلى رأس بيروت. وسنة ١٨٧٥ أسس الآباء اليسوعيون «كلية القديس يوسف» (الجامعة اليسوعية) وسَطَّ تنافس سافر بين الفرنسيين «الكاثوليك» والأميركيين «البروتستانت».

مدارس... مدارس

بعدها راح يزداد بناء المدارس: راهباتُ الناصرة أنشأت مدرسة ابتدائية داخلية في رأس بيروت سنة ١٨٦٩، وراهباتُ مار يوسف الظهور مدرسة



دانيال بُلِس

(٢) عصام شبارو، الدولة العثمانية (١٥١٦ - ١٩١٨)، ص ١٠٢١.

(٣) مصطفى خالدي وعمر فروخ، التبشير والاستعمار في البلاد العربية، ص ١ و ٢.

(٤) كمال الصليبي، تاريخ لبنان الحديث، ص ١٧٤.

(٥) إبراهيم الأسود، تنوير الأذهان في تاريخ لبنان، ج ٢، ص ٣٣٣.



جامعة القديس يوسف

خارجية مجانية وأخرى داخلية صغيرة للبنات في زقاق البلاط سنة ١٨٧٢، وبعثة الإخوة المريميين مدرسة ثانوية حديثة في الجميزة سنة ١٨٩٤ ثم أخرى ابتدائية في رأس بيروت سنة ١٨٩٦، وراهبات العائلة المقدسة الفرنسية مدرسة داخلية للبنات في حي المدور سنة ١٨٩٤^٦، وراهبات الراعي الصالح مدرسة داخلية للبنات سنة ١٩٠٠، وراهبات المحبة (بيزنسون) مدرسة القديسة حنة سنة ١٩٠٨، والبعثة العلمانية الفرنسية («المدرسة العلمانية الفرنسية للبنات» (اللايك) في خندق الغميق سنة ١٩١٠ ثم نقلتها إلى زقاق البلاط سنة ١٩١٩ («ليسيه عبد القادر» لوجودها في شارع الأمير عبد القادر الجزائري)، والإرسالية الإيطالية مدرسة ابتدائية للبنات سنة ١٨٩٤، والإرسالية الإنكليزية مدرسة ابتدائية للبنات («المدرسة الإنجيلية الإنكليزية») في زقاق البلاط سنة ١٨٦٠، وجمعية كيزر زورث الإنجيلية الألمانية مدرسة مجانية للبنات في ميناء الحصن سنة ١٨٦٢. وفي غفلة عن رقابة الأهل أو السلطة مارست الشَّماسات الألمانيات عملية تنصير التلميذات المسلمات فتصّرت إحداهنّ وأصبحت أول راهبة تابعة للقيصر الألماني. عندئذ أخذ الأهالي المسلمون يتحفّظون عن إرسال بناتهم إلى هذه المدرسة.

(٦) لجنة من الأدباء، لبنان مباحث علمية واجتماعية، ج١، ص ٢٣٩.

بُزوغ «جمعية المقاصد»



مقابل ذلك، أسس وجهاء بيروت «جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية» في بيروت (٣١ تموز ١٨٧٨) متوجهة نحو تعليم الفتاة المسلمة، فأُسست أول مدرسة للبنات في تشرين الأول ١٨٧٨ في محلة الباشورة، وكانت السيدة كلثوم بنت الشيخ محمد البربر (أم علي

سلام) إحدى تلميذاتها^٧ إلى جانب ٢٣٠ تلميذة^٨، ثم أسست الجمعية مدرسة البنات الابتدائية الثانية في حزيران ١٨٧٩ في سوق المنجدين وسط بيروت ومن تلميذاتها نظيرة محاسبجي (والدة الرئيس رياض الصلح) وخديجة محمصاني وعائشة طيارة وخازندار بيهم وأنيسة يونس ورضى رمضان وفريدة كتوعة^٩.

سنة ١٨٨٢ حلت السلطة العثمانية «جمعية المقاصد» فشلت دورها الرائد في تعليم الفتاة المسلمة، بينما واصلت الدور مدارس البنات التابعة للإرساليات التبشيرية الأجنبية حتى نهاية الحكم العثماني (١٩١٨). لكن «جمعية المقاصد» عادت تواصل رسالتها ودورها الرائد في تعليم الفتاة المسلمة فأُسست مدرسة فاطمة الزهراء للبنات سنة ١٩٢٠ وكلية المقاصد للبنات سنة ١٩٢٦^{١٠}.

الصبيّة اللبنانية تتحدّى الأعراف

هكذا الإرساليات التبشيرية الأجنبية دفعت الفتاة البيروتية إلى تحدّي الأعراف والتقاليد، والتوجّه نحو العلم والعمل، محلياً في بيروت أو خارجياً في فرنسا وإنكلترا والولايات المتحدة الأميركية. وكانت الفتاة المسيحية أسبق في تلقّي العلم لدى مدارس الإرساليات، لأن الفتاة المسلمة لاقت صعوبة أشدّ لتحقيق طموحها. مع أن مدرسة «غرة الإحسان للبنات»

(٧) أوراق لبنانية، م ١ ص ١٣٦ و ١٣٨.

(٨) الفجر الصادق، أعمال السنة الأولى، ص ٣١.

(٩) عصام شبارو، جمعية المقاصد، ص ٣٥.

(١٠) المرجع ذاته، ص ٧٦ و ٨١.

(أسستها سنة ١٨٩٩ لجنة «غرة الإحسان» برئاسة المفتي الشيخ مصطفى نجا) كانت خطوة متطورة نسبةً للمدارس الأهلية الإسلامية أثناء حل «جمعية المقاصد»، وإنْ هي لم تبلغ مستوى مدارس الإرساليات التبشيرية الأجنبية. وكانت عنبرة سلام الخالدي (شقيقة الرئيس صائب سلام) إحدى تلميذاتها^{١١}.

رائدات من لبنان

من الرائدات فترتد:

— أنيسة صبيحة من طرابلس، أولى طبيبات المشرق العربي. تخرجت في كلية الطب في جامعة أومبور سنة ١٨٩٩، ومارست مهنة الطب في مصر^{١٢}.

— إملي سرسق: كرست جهودها لتعليم المرأة في بيروت بتأسيسها سنة ١٨٨١ مدرسة «زهرة الإحسان» وارتبطت باسمها أربعين سنة. وهي أنشأت أيضًا ميثمًا من مالها الخاص بنحو ٢٠ ألف فرنك ذهبي. وتكريماً إياها أقامت لها جمعية «زهرة الإحسان» سنة ١٩١٤ تمثالاً رخامياً في باحة المدرسة^{١٣}.

تمثال إملي سرسق في باحة «زهرة الإحسان»

— ماري تابت أول طبيبة بيروتية سنة ١٩٠٢.

— زهية بركات أول صيدلانية في المشرق العربي سنة ١٩٠٥.

— سنية حبّوب أول طبيبة نسائية بيروتية مسلمة سنة ١٩٣١ (الثلاث أعلاه تخرّجن من جامعات أميركية).

— سهيلة سعادة أول قابلة قانونية بيروتية مسلمة تتخرج من لندن سنة ١٩٢٦.

— كاترين شامية أول عالمة لبنانية في الذرة. نالت الدكتوراه في الفيزياء

سهيلة سعادة

(١١) عنبرة سلام الخالدي، جولة في الذكريات بين لبنان وفلسطين، ص ٢٦.

(١٢) اميلي فارس إبراهيم، الحركة النسائية اللبنانية، ص ١٤٦.

(١٣) حنيفة الخطيب، تاريخ تطور الحركة النسائية في لبنان، ص ١١٣ و ١١٤.



والكيمياء من جامعة جنيف سنة ١٩١٣، وعملت مساعدة ماري كوري في مختبرها^{١٤}.

— حنة نجمة التتوري أول طبيبة أسنان تخرّجت في جامعة ريو دي جانيرو في البرازيل سنة ١٩٠٩^{١٥}.



أربها قدورة

في بيروت تخرّجت أوّل كساب من الكلية السورية الإنجيلية (الجامعة الأميركية) سنة ١٩٠٨، فكانت أول ممرضة في الشرق العربي^{١٦}. وكانت ابتهاج قدورة أول بيروتية مسلمة تدخل مدرسة البنات الأميركية لتتخرّج منها سنة ١٩٠٩. ونينا طراد (زوجة الرئيس شارل حلو لاحقاً) أول بيروتية تتخرّج من معهد الحقوق في الجامعة اليسوعية وتتسبب إلى نقابة المحامين سنة ١٩٣٢ وتزاوّل مهنة المحاماة. وكانت سنيّة زيتون أول امرأة لبنانية تتسبب إلى نقابة المهندسين سنة ١٩٤٢^{١٧}.

أربع صبايا رائدات

إقبال الفتاة البيروتية، مسيحية ثم مسلمة، على تلقّي العلم ودخول ميدان العمل، بدأ مع نهاية حكم الدولة العثمانية وتبلّور مع الانتداب الفرنسي وإعلان دولة لبنان الكبير وعاصمته بيروت في أول أيلول ١٩٢٠، ثم إعلان الجمهورية اللبنانية في ٢٣ أيار ١٩٢٦، وهي أول جمهورية في الوطن العربي، فتمكّنت أربع فتيات (ابتهاج قدورة، سهيلة سعادة، سنيّة حبوب، ونينا طراد) من الالتحاق بمدارس الإرساليات التبشيرية الأجنبية، اثنتان منهجنّ تابعتا الدراسة والعمل في بيروت، واثنتان تابعتا الدراسة في إنكلترا والولايات المتحدة الأميركية وعادتا إلى بيروت للعمل، فتحوّلت الرائدات الأربع نموذج المرأة البيروتية في تحدّي الأعراف والتقاليد، ورائدات بتحدّي تحصيل العلم، في بيروت أو الخارج، والانخراط في العمل على غرار الرجل.

فمذا عن أولئك الأربع؟

١٤) عصام شبارو، الانتداب الفرنسي ١٩٢٠ - ١٩٤٣، ص ٢٠١١.

١٥) إميلي فارس إبراهيم، الحركة النسائية اللبنانية، ص ١٤٧.

١٦) الممرضة الأولى تروي مذكراتها، النهار، عدد ١٧ أيار ١٩٧٥.

١٧) عصام شبارو، الانتداب الفرنسي (١٩٢٠ - ١٩٤٣)، ص ٢٠١٢.

١- ابتهاج قدورة إحدى رائدات النهضة النسائية في لبنان

ولدت في محلة «عُ السُّور» (رياض الصلح) ونشأت في أسرة بيروتية عريقة. والدّها أديب قدورة، أول طبيب بيروتى مسلم خريج الكلية السورية الإنجيلية (الجامعة الأميركية) سنة ١٨٨١، شقيقها مصطفى قدورة أول صيدلي بيروتى مسلم تخرّج من الكلية ذاتها سنة ١٩٠٠ وأسس صيدلية «المشرق» في ساحة «عُ السُّور» وانتُخب نقيب الصيادلة ثلاث دورات. شقيقها الآخر هو الدكتور حليم نائب بيروت مرتين^{١٨}، وابنة شقيقها مصطفى قدورة، هي الدكتورة زاهية قدورة أول عميدة كلية آداب في لبنان والوطن العربي وإحدى رائدات العربية.

* في الاتحاد النسائي

ابتهاج قدورة أول بيروتية مسلمة تدخل المدرسة الأميركية للبنات لتتخرّج فيها سنة ١٩٠٩، وتصبح واحدة من رائدات النهضة النسائية في لبنان مع نجلاء كفوري وسلمى صائغ وجوليا طعمة دمشقية وغيرهن من مؤسّسات «جمعية النهضة النسائية» في بيروت سنة ١٩٢٤، لـ «تنشيط الاقتصاد الوطني والصحة العامة». أقامت المعارض ومستوصفاً في محلة المصيطبة مجهّزاً بأحدث الآلات انتقل بعدها إلى جمعية الصليب الأحمر اللبناني سنة ١٩٤٦^{١٩}.



إفلين بسترس

تولّت ابتهاج قدورة رئاسة الاتحاد النسائي في سوريا ولبنان بعد رئاسة لور تابت، ثم توالى على رئاسته: أدال نحو، نجلاء صعب، روز مشحفة، وإفلين بسترس. ضمّ هذا الاتحاد الجمعيات النسائية في لبنان، فكان شعلة النهضة النسائية^{٢٠}.

* تظاهرة الاستقلال

ثلاث من اللواتي تولّين رئاسة الإتحاد النسائي في سوريا ولبنان شاركن في قيادة التظاهرات النسائية أثناء ثورة بيروت من أجل استقلال لبنان (١١-٢٢ تشرين الثاني ١٩٤٣). رئيسته الأولى لور تابت (زوجة الرئيس بشارة الخوري المعتقل في قلعة راشيا بأمر المندوب الفرنسي جان هيللو)

١٨) عصام شبارو، زاهية مصطفى قدورة (١٩٢٠ - ٢٠٠٢)، ص ٩.

١٩) حنيفة الخطيب، تاريخ تطور الحركة النسائية في لبنان، ص ١١٩.

٢٠) إملي فارس إبراهيم، الحركة النسائية اللبنانية، ص ٢٩ - ٣١.



لور ثابت وزوجها الرئيس بشارة الخوري

وخليفتها ابتهاج قدورة كانتا في طليعة تظاهرة نسائية انطلقت أمام القصر الجمهوري في القنطاري (غربي بيروت حيث الأغلبية الإسلامية) لتلتقي مع تظاهرة نسائية خرجت من الأشرقية (شرقي بيروت حيث الأغلبية

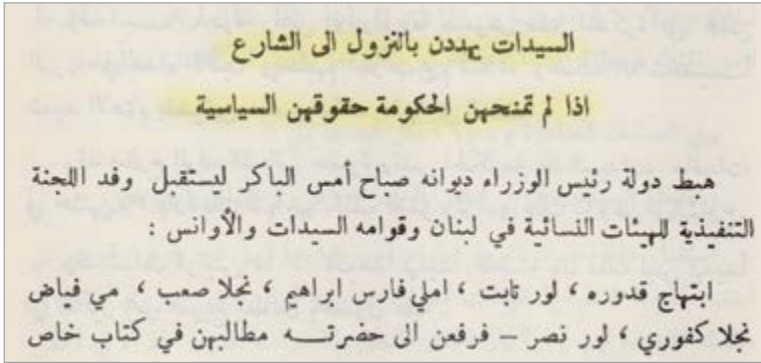


المسيحية) وفي مقدمتها نجلاء صعب رابعة رئيسة للاتحاد، وإيفلين بسترس سادس رئيسة لهذا الاتحاد الذي أثبت دوره الرائد في معركة الاستقلال ضد الانتداب الفرنسي. وكان يضم الجمعيات النسائية في لبنان، في طليعتها «جمعية النهضة النسائية» التي أسستها ابتهاج قدورة مع نجلاء كفوري المشاركة أيضًا في تلك التظاهرة النسائية الكبرى التي ضمت كذلك زلفا شمعون زوجة الوزير كميل شمعون وفايزة الجابري زوجة رئيس الحكومة رياض الصلح الذي اعتقل أيضًا مع الوزير كميل شمعون في قلعة راشيا.

انضمت إلى التظاهرة النسائية الكبرى منيرة الصلح (زوجة وحيد الصلح) ونازك العابد (زوجة المؤرخ البيروتي محمد جميل بيهم) وأنا ثابت وهناء النجار وإيفا شارل مالك وليلى بدر وماغي مصور ورينيه تقلا... ومئات نساء يمثلن المرأة البيروتية واللبنانية على اختلاف طوائفها ومذاهبها^{٢١}. اخترقت التظاهرة الشوارع المؤدية إلى ساحة الشهداء فألى مقر قنصل بريطانيا والولايات المتحدة الأميركية ومصر وتركيا والعراق

(٢١) جورج حنا، من الاحتلال إلى الاستقلال، ص ٢٠٤.

وإلى دار الفتوى حيث استقبلها مفتي الجمهورية اللبنانية الشيخ محمد توفيق خالد رغم إحاطة الجنود الفرنسيين بهذه الدار^{٢٢}.



الصحافة غطت خبر التظاهرة النسائية الكبرى

* تأثيرها في الصبايا للاختصاص العلمي

تحوّلت الرائدة النسائية ابتهاج قُدُورة قُدُوة عشرات الفتيات في متابعة الدراسة أو في تأسيس الجمعيات النسائية، وفي طليعتهن ابنة شقيقتها مصطفى الدكتورة زاهية مصطفى قدورة (١٩٢٢-٢٠٠٢) التي درست في الكلية الأميركية للبنات ست سنوات (على غرار عمّتها) ثم التحقت بالجامعة الأميركية لدراسة التاريخ. ولم تكن هذه الجامعة تمنح درجة الدكتوراه بعد، فاتجهت إلى جامعة القاهرة ونالت الدكتوراه في التاريخ سنة ١٩٥١ وعادت تدرّس في الجامعة اللبنانية التي تأسست عام ١٩٥٢، ثم أسست اتحاد الجمعيات اللبنانية سنة ١٩٥٢.

كانت ابتهاج قُدُورة قُدُوة أيضاً لابنة ثانية من شقيقتها مصطفى، هي وديعة قدورة المناضلة الوطنية والقومية بدفاعها الملتزم عن القضية الفلسطينية، فتولت رئاسة الاتحاد النسائي العربي الفلسطيني في طولكرم^{٢٤}.

(٢٢) نازك قزعون، المرأة اللبنانية في معركة الاستقلال، مجلة الجندي اللبناني، ج٧، بيروت، كانون الأول ١٩٧١، ص ٤٦ و ٤٧.

(٢٣) عصام شبارو، زاهية مصطفى قدورة، ص ٩ و ١٠.

(٢٤) المرجع ذاته، ص ١٢.

٢- سهيلة سعادة أول قابلة قانونية لبنانية وعربية تخرّجت في لندن (١٩٢٦)

ولدت في كرم الصوراتي (عين المريسة) سنة ١٩٠٢. والدّها خليل عثمان سعادة، والدتها مباركة أحمد بدرشاني، شقيقها الدكتور عثمان سعادة من أوائل أطباء بيروت خريج الجامعة الأميركية^{٢٥}.

تلقت مبادئ القراءة والكتابة وختمت القرآن الكريم في مدرسة عين



المريسة التي أنشأتها لجنة التعليم الإسلامية برئاسة الشيخ توفيق الهبري سنة ١٩٠٤، وكان مقرّها في دار يملكها طاهر التتير في زاروب المحب - التتير. وكانت سنية حبوب إحدى رفيقاتها في هذه المدرسة.

* إلى اختصاص التمريض

انتقلت سهيلة سعادة إلى مدرسة كنيسة اسكتلندا ثم المدرسة البروسية (الألمانية)، قبل أن تنتسب إلى مستشفى الجامعة الأميركية في بيروت لدراسة فن التمريض سنة ١٩١٧، فتخرّجت سنة ١٩٢٠ أول ممرضة بيروتية مسلمة إلى جانب زميلاتها: إبريزا حداد، زاهية سوسو، سعاد كنعان، وماري بجاني التي عملت مع سهيلة سعادة كممرضتين في مركز جمعية الصليب الأحمر الأميركية، وفي سنة ١٩٢٢، خدمت سهيلة سعادة ثلاث سنوات في إدارة مصح قرية الشبانية قرب حمانا^{٢٦}.

سافرت صيفاً ١٩٢٦ إلى لندن ملتحقة بمعهد كوين شارلوت، فدرست فن التوليد نظرياً وطبقته عملياً ستة أشهر وتخرّجت بدرجة جيد جداً. بعد عودتها إلى بيروت أسست عيادة خاصة للتوليد ومعاينة النساء الحوامل ومارست مهنة التوليد في المنازل^{٢٧}، فكانت أول قابلة قانونية مسلمة في لبنان والوطن العربي، رائدة في مهنة القابلة القانونية، ومعها بدأ توجه الفتيات إلى هذه المهنة فحلّت مكان الداية أو القابلة غير القانونية.

(٢٥) طه الولي، بيروت في التاريخ والحضارة والعمران، ص ٢٤٣.

(٢٦) عصام شبّارو، عين المريسة، ص ٦٣١.

(٢٧) مجلة الصياد، عدد آذار ١٩٧٥، ص ٦٤ و ٦٧.



الجامعة الأميركية في بيروت

* اختصاص القابلة القانونية

شجعت الرائدة سهيلة سعادة، إنشاء معهد «الماترنيتيه» التابع لكلية الطب الفرنسية في بيروت، ومنه تخرّجت أوليات القابلات القانونيات أمثال: فاطمة العريس وفوزية عيتاني ومكرم الحسيني سنة ١٩٤٠، ورمزية مروش وشهباء حلاوي وكليز شويري وكليز مطر وكليز نقوزي وكوثر حلاق ولمياء عضاضة ووداد صندقلي سنة ١٩٤١^{٢٨}.

استمرت سهيلة سعادة في عملها حتى ١٩٥١ حين عيّنت مُدرّسة قسم التمريض في الجامعة الأميركية في بيروت^{٢٩} ولم تتوقف عن إلقاء المحاضرات في نادي التعاون البيروتية حتى وفاتها سنة ١٩٩٢ عن ٩٠ عاماً.

٣- الدكتورة سنية حبوب أول طبيبة بيروتية مسلمة (١٩٣١)

ولدت في محلة ميناء الحصن. والدها التاجر مصطفى حبوب من وجهاء بيروت. تلقّت مبادئ القراءة والكتابة وختمت القرآن الكريم في مدرسة «لجنة التعليم الإسلامية» في عين المريسة سنة ١٩٤٠.

ومن حوار معها في مجلة «المقاصد»^{٣٠} ذكّرت: «كان عليّ، كسائر فتيات تلك الفترة، أن أكتفي بهذا القدر من العلم وألتزم البيت. لكنّ تعرّفي بجارة من سنّي هي سهيلة سعادة وكانت تدرس في مدرسة الانكليز في

(٢٨) مجلة الزميل، عدد ٩ آب ١٩٩٢، ص ٤٨ - ٥٠.

(٢٩) طه الولي، بيروت في التاريخ والحضارة والعمران، ص ٣٤٤.

(٣٠) سهام خلوصي، حوار مع رائدة، الدكتورة سنية حبوب أول طبيبة بيروتية، المقاصد، العدد ٩ (كانون الثاني، ١٩٨٣)، ص ١٠٨.

زقاق البلاط، حفّزني أن أفعل مثلها. وافق والدي والتحقتُ بهذه المدرسة، ثم تابعت دراستي في مدرسة الأميركان قرب السراي الكبير».

أثناء الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨) توقفت سنيّة حبوب عن الدراسة ثم التحقت بـ «الجونيور كولدج» (لاحقاً «كلية بيروت الجامعية»)، وتذكّر^{٣١}: «شرط إنشاء هذه الكلية كان انتساب ثلاث طالبات على الأقل إلى الصف الأول. انتسبتُ أنا ورفيقتان: منيرة البربير وأرمضي مكروشيان، فكنّا أولى خريجات هذه الكلية».

* الخارجة على تقاليد المجتمع

تزوجت سنيّة حبوب من الدكتور يوسف رستم بوجي (١٨٨٧ - ١٩٦٧). وهو التحق سنة ١٩٠٣ بالكلية السورية الإنجيلية (الجامعة الأميركية) وتخرّج منها طبيباً للأمراض الجلدية، ثم خدم في الجيش العثماني أثناء الحرب العالمية الأولى وافتتح عيادة خاصة به في وسط بيروت^{٣٢}. ورغم طلاقه لاحقاً من سنيّة، ظلّ يشجعها على دراسة الطب في الجامعة الأميركية، فالتحقّت بها لابسةً الملاء والحجاب. تعرضت لإهانات الرجال، وحُرّم والدها من دخول المسجد. وتذكر أيضاً^{٣٣}: «الالتحاق بالجامعة كان جريمة في نظر المجتمع. صحيح أن نفوذ والدي العائلي رد عني سهام الانتقادات العائلية إنما لم يستطع أن يمنع عني غضب مجتمع يراني ذاهبة وحدي في الترامواي إلى الجامعة أو آتية منها إلى المنزل. كان الرجال يواجهونني في الطريق ويبصقون في وجهي، لكنني كنت أتابع سيرتي وحجابي على وجهي. في الجامعة درستُ الفيزياء والطبيعيّات وأتممت سنة تحضيرية في الطب مع أن الطب كان محظوراً على النساء».

أمام هذا الواقع في الجامعة الأميركية أفتنعت والدها بدراسة الطب في الولايات المتحدة الأميركية، فسافرت سنة ١٩٢٦ على متن باخرة ما إن رَسَتْ في مرفأٍ مرسيليا حتى نزعت سنية الحجاب وأكملت سفرها سافرة^{٣٤}.

تخرّجت من جامعة فيلادلفيا سنة ١٩٣١ دكتورة في الأمراض النسائية، واشترت بخمسين دولاراً ثوب التخرّج، وهو عادةً يُستعار لاحتفال التخرّج.

(٣١) المصدر ذاته، ص ١٠٩.

(٣٢) عصام شبارو، عين المريسة، ص ٦٠٥.

(٣٣) سهام خلوصي، حوار مع رائدة الدكتوراة سنيّة حبوب، المصدر السابق، ص ١١٠.

(٣٤) عصام شبارو، عين المريسة، ص ٦٣٠.

لكنها اشترته لتلبسه وتركع في بيروت أمام أمها التي لم تكن تعرف القراءة والكتابة ومع ذلك شجعته على السفر^{٣٥}.

* لوحة على الشرفة

عادت سنيّة إلى بيروت سنة ١٩٣٢ «دكتورة في الأمراض النسائية» فاستأجرت من الدكتور نجيب عرداتي شقةً في محلة باب ادريس جعلتها أول عيادة تديرها امرأة بيروتية مسلمة، وعلقت على الشرفة لوحة صغيرة سوداء: «الدكتور سنيّة حبوب». وتزوجت لاحقاً من الصحافي محمد النقاش.

زاوالت الطب في عيادتها ٤٣ سنة حتى اندلاع الحرب في ١٣ نيسان ١٩٧٥. وبقيت تلك اللوحة الصغيرة على شرفة العيادة المهجورة حتى ١٩٩٥ حين أزيلت مع المبنى ومحيطه ضمن مخطط سوليدير لإعادة إعمار وسط بيروت.

لم تكف الدكتورة سنيّة حبوب بعملها طبية في عيادتها الخاصة بل كانت ناشطة في خدمة المجتمع العامة وتوعية المرأة بصورة خاصة، بمشاركتها في جمعية الشابات المسلمات ودار الأيتام الإسلامية والصليب الأحمر اللبناني واتحاد الجامعات اللبنانية ومجلس أمناء مستشفى المقاصد.

كانت تشجع المرأة على دراسة الطب، سواء في الجامعة الأميركية (كالطبيبة أدما أبو شديد أول طبيبة لبنانية تنتسب إلى نقابة الأطباء سنة ١٩٣١، وطبيبتي الأسنان ناهيل عبود وماري كرم والصيدلانية أليس أبو شديد^{٣٦}) أو في الجامعة اليسوعية (كالطبيبة إيلين صافي والصيدلانية إملي صافي). وكانت حنة نجمة التنوري أول طبيبة أسنان تخرّجت في جامعة ريو دي جانيرو في البرازيل سنة ١٩٠٩.

نالت الدكتورة سنيّة أوسمة رسمية: الوسام الفضي على عهد الرئيس ألفرد نقاش، الوسام الذهبي على عهد الرئيس بشارة الخوري وعلّقه على صدرها رئيس الحكومة رياض الصلح، ووساماً برتبة فارس على عهد الرئيس سليمان فرنجية وعلّقه على صدرها رئيس الحكومة صائب سلام، ووسام الاستحقاق المذهب الصحي على عهد الرئيس الياس سركيس، وعلّقه على صدرها رئيس الحكومة شفيق الوزان في احتفال خاص أقامه

(٣٥) زاهية قدورة، تاريخ العرب الحديث، ص ٥٨٨ و ٥٨٩.

(٣٦) سهام خلوصي، حوار مع رائدة الدكتورة سنيّة حبوب، المصدر السابق، ص ١١١.

لها المركز الثقافي الإسلامي في مقره (شارع السادات) الخميس ١٣ أيار ١٩٨٢.^{٣٧}

٤- نينا طراد أول امرأة بيروتية ولبنانية تزاوّل مهنة المحاماة

كما تحدّثت سهيلة سعادة وسنّيّة حبوب الأعراف والتقاليد في متابعة دراسة التمريض في لندن والطب في فيلادلفيا وافتتاح عيادة خاصة في بيروت، هكذا الصبيّة البيروتية الأرثوذكسية نينا طراد تحدّثت تلك الأعراف والتقاليد فالتحقت بمعهد الحقوق وكان بعدُ مقتصرًا على الشبان.

ولدت في بوغوتا عاصمة كولومبيا من أب بيروتيّ (ميشال طراد) وأم كولومبية من عائلة لوبو غويرو اللاتينية^{٣٨}. نشأت في بيئة متحضرة مختلفة عن التقاليد السائدة في لبنان. إثر وفاة والدها عادت لتعيش في بيروت وتعتني بأفراد عائلتها، والدتها وشقيقها وشقيقتها أورور (تزوجت لاحقًا من جوزف أوغورليان نائب حاكم مصرف لبنان).



نينا طراد زوجة الرئيس شارل حلو

(٣٧) المصدر ذاته، ص ١٠٩.

(٣٨) شارل حلو، حياة في ذكريات، ص ١٠٩ و ١١٠.

* خالفت نصيحة عمّها

كان عمّ نينا، المحامي بترو طراد، يدير مكتب محاماة وسط بيروت بعدما تخرّج من كلية الحقوق في باريس سنة ١٩٠٠، وعيّن في اللجنة الإدارية سنة ١٩٢٠، ثم نائباً عن بيروت في المجلس التمثيلي الثاني سنة ١٩٢٥، ثم نائباً في مجلس النواب أربع مرات في السنوات ١٩٢٧ و ١٩٢٩ و ١٩٣٤ و ١٩٣٧ قبل أن يشكّل الحكومة سنة ١٩٤٣. كان يدرك معاناة قد تتعرّض لها ابنة شقيقه نينا طراد داخل معهد الحقوق أو لدى مزاولتها مهنة المحاماة. لكنها خالفت نصيحة عمها، ولم تعبأ بتشاؤم رفيقاتها اللواتي كن يستصعبن قبول امرأة في مهنة المحاماة.

* أول اسم نسائي في سجل النقابة

أكملت دراستها القانونية وشرعت تدرس اللغة اللاتينية في معهد ويغمان البروتستانتي، ثم التحقت بمعهد الحقوق لتتخرّج وتتنسب إلى نقابة المحامين في ٦ كانون الثاني ١٩٣٢، بعد مناقشات ومداولات طويلة ومضنية سبقت موافقة النقابة، فكانت أول امرأة بيروتية ولبنانية تنسب إلى نقابة المحامين في بيروت، وتزاول مهنة المحاماة في مكتب عمها المحامي بترو طراد الذي عاد فدعمها لتتنسب إلى نقابة المحامين^{٣٩}.

أثبتت كفاءة وفعالية وهي تتدرج في مكتب عمها فباتت طليعة كبار المحامين. كانت منى أمين عبد الله أول امرأة ورد اسمها في الجدول العام بأسماء المحامين سنة ١٩٣٢ ولكنها لم تمارس مهنة المحاماة^{٤٠}. أما نينا فاختارها القاصد الرسولي لتكون في البعثة البابوية إلى الجمعية العمومية لمنظمة الأونيسكو (بيروت ١٩٤٨). ثم تزوجت من شارل حلو ووقفت إلى جانبه نائباً فوزيراً فترئيس الجمهورية اللبنانية (١٩٦٤ - ١٩٧٠)، وأصبحت المحامية نينا طراد السيدة اللبنانية الأولى.

معها بدأ عصر المحاميات في لبنان^{٤١}، وشجعت المرأة على مزاوله المحاماة بعد دراسة الحقوق إلى جانب الرجل، فبرزت المحامية بلانش عرفة، لتكر سبحة المحاميات بعدهما. وتعتبر المحامية جاكلين مسابكي أول محامية لبنانية تنتخب عضواً في مجلس نقابة بيروت سنة ١٩٦٥^{٤٢}.

عانت نينا طراد من مرض السرطان سنتين وتوفيت في ٣٠ آذار ١٩٨٩.

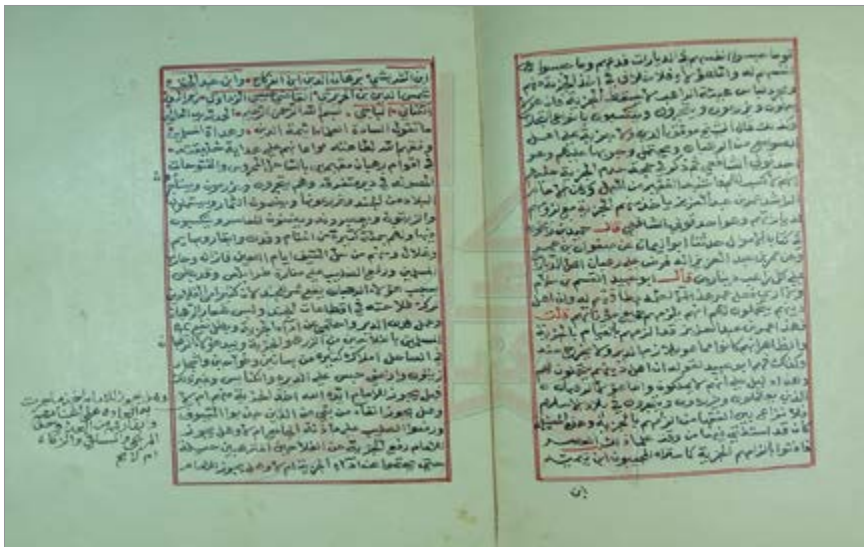
(٣٩) المصدر ذاته، ص ١١١.

(٤٠) نقابة المحامين، الكتاب الماسي (١٩١٩ - ١٩٩٤)، ص ٤٥.

(٤١) عصام شبارو، الانتداب الفرنسي (١٩٢٠ - ١٩٤٣)، ص ٢٠١٩.

(٤٢) نقابة المحامين، الكتاب الماسي (١٩١٩ - ١٩٩٤)، ص ٢١٩ - ٢٢٢.

l'administration. L'important fut la perception d'argent parce que toutes les facilités octroyées aux chrétiens, moines et paysans, visaient à maintenir les intérêts matériels. En dépit des réserves et des protestations des juristes musulmans, les sultans et les gouverneurs continuèrent à appliquer la politique qui assurait la prospérité et l'augmentation des revenus pour remplir les caisses du sultanat mamelouk.



Le passage qui fait mention des moines et des paysans chrétiens aux environs de Tripoli

Al-qawl al-muhtār, p. 42

«(في اقوام رهبان مقيمين بالساحل المحروس والفتوحات المصنونه في دير متفرقه وهم يتجرون ويزرعون ويستأجرون البلاد من الجند ويزرعونها ويضمنون الثمار ويستعملونها والزيتون ويعصرونه ويضمنون المعاصر ويتكسبون فيها ولهم جملة كثيرة من اغنام وفدن وابقار وبهايم وغللال ومنهم من سل السيف ايام اللعين قازان وحارب المسلمين ورفع الصليب على منارة طرابلس وقد بطن بسبب هؤلاء الرهبان يقع شر للجند لان كثيرا من الفلاحين ترك فلاحته في اقطاعات الجند ولبس شعار الرهبان وعمل فدن الدير واحتمى عن اداء الجزية وبطل نفع على المسلمين بالفلاحين من الزرع والجزية ويبد هؤلاء الرهبان في الساحل املاك كثيرة من بساتين وطواحين واشجار زيتون وارااضي حبس على الديرة والكنائس وغير ذلك...»



rawk que l'État mamelouk fit augmenter les revenus et parvint à la prospérité des régions agricoles et la construction du pays. Ainsi le *rawk* forma la base du développement de l'État mamelouk.⁵⁵ Cela explique la permission aux chrétiens, les moines en particulier, d'augmenter leurs possessions et de travailler dans les terres des soldats musulmans et dans les *iqṭā'*, et même de les louer, dans le but de l'obtention d'une production abondante et la perception régulière des impôts. Les juristes musulmans se trouvèrent contraints à soutenir de tels changements dans l'application de la loi islamique pour le haut intérêt de la communauté musulmane. Bien que certains juristes soient persuadés que toute innovation (*bid'a*) ne s'appuyant pas sur un précédent datant de l'époque du Prophète était par essence mauvaise, il fallait pourtant faire des concessions à l'évolution des circonstances.⁵⁶

Conclusion

Le document «*al-qawl al-muḥtār fī-l-man' 'an taḥyīr al-kuffār*» constitue une source importante pour l'étude du statut des chrétiens aux environs de Tripoli durant la première moitié du XIVe siècle. Bien qu'il ne donne qu'une image partielle de la situation des chrétiens du nord du Liban, il contribue à éclairer une partie de l'histoire des régions voisines de la ville sous la domination mamelouke. Les moines et les paysans du Koura, d'Enfé et de Batroun avaient une place reconnue dans la province puisqu'ils formaient la majorité des habitants et fournissaient la main d'œuvre primordiale pour le développement de la production des terres agricoles. Malgré leur statut de *ḍimma*, ils jouissaient d'une liberté de culte et participaient au développement économique de la province. Mais leur place était fragile dominée par le consentement du gouverneur de Tripoli, et bien sûr du sultan, qui pouvait changer son attitude suivant ses intérêts. Les mesures prises par les autorités mameloukes n'étaient pas arbitraires, mais elles étaient reliées à

55) Al-Asadī, Muḥammad bin Muḥammad bin Ḥalīl, *Al-Taysīr wal-i'tibār wal-taḥrīr fīmā yaḡib min ḥisn al-tadbīr wal-taṣarruf wal-iḥtiyār*, édité par 'Abd al-Qādir Aḥmad Ṭulaymāt, Le Caire, Dār al-fikr al-'arabī, 1968, p. 75–76.

56) James Robson, «*Bid'a*», *Encyclopédie de l'Islam*, 1, Nouvelle édition, Leiden, E.J.Brill, 1975, p. 1234.

contre les chrétiens "*al-kalimāt al-muhimma fī mubāšarat ahl al-dimma*" de Ġamāl al-dīn al-Asnawī vers 755-760/1355-1360 ont contribué à la fomentation de la haine contre les chrétiens suivie d'une vague de persécutions et de destructions des églises.⁵² Cette attitude anti-chrétienne fut le résultat de la réaction du peuple contre la puissance et l'influence de certains membres de la communauté chrétienne qui avaient atteint un rang social élevé et avaient occupé des postes administratifs importants.⁵³ De plus, ils ont été accusés de collaborer avec les Mongols et les Européens qui n'ont pas arrêté leurs attaques contre les ports et les villes maritimes du sultanat mamelouk. C'est dans un tel climat créé par les ulémas, les *muftīs*, et les prêcheurs dans les mosquées, que les sultans ont promulgué des décrets en 1300-1301, 1321, 1354, 1356, 1364, 1365-1366, contre les *ḡimmī*, particulièrement les chrétiens, pour les obliger à se soumettre au « pacte du calife 'Umar » qui a fixé des conditions (*šurūṭ*) à l'attention des chrétiens pour les distinguer des musulmans et montrer leur infériorité.⁵⁴ Ce nombre de décrets ne peut pas être expliqué par une croissance de fanatisme de la part des sultans envers les non-musulmans dans le sultanat. En suivant le déroulement des incidents, on remarque que les mesures prises contre les chrétiens, et les *ḡimmī* en général, étaient le résultat de la pression exercée par la population qui sortait dans les rues poussée et dirigée par les hommes de religion avec qui les sultans n'étaient pas d'accord. Aux environs de Tripoli habités dans leur grande partie par des chrétiens, le gouvernement mamelouk était intéressé à protéger les paysans qui travaillaient dans les terres agricoles comme un élément nécessaire à la prospérité économique de la province de Tripoli et au Trésor. La force et la faiblesse du pouvoir résulta de l'aliénation des grandes sources des revenus des *iqṭā'* et ce fut par le biais du

52) Moshe Perlmann, "Notes on Anti-Christian propaganda in the Mamlūk Empire", *Bulletin of the School of Oriental and African Studies, University of London*, 4/10, 1942, p. 844.

53) Voir sur ce sujet: Eliyahu Strauss, "The social isolation of ahl adh-dhimma", O. Komlos (éd), *Paul Hirschler Memorial Book*, Budapest, 1950, p. 73-94.

54) Pour des informations sur ces décrets, voir: Al-Maqrīzī, *Al-sulūk*, 2, p. 337-338 ; 3, p. 41-44 ; 4, p. 201-202. Voir également l'étude d'Urbain Vermeulen, «The rescript of al-Malik al-Šāliḥ against the Dimmīs (755 A.H./1354 A.D.)», *Orientalia Lovaniensia Periodica*, 9(1978), p. 175-183.



Notre dame de Balamand

armes contre les musulmans. Sauf les moines qui vivent dans un monastère, coupés du monde extérieur pour se consacrer à la prière, ne sont pas soumis au paiement de la *ğizya*.⁴⁷ Dans ce cas, nous nous interrogeons sur l'efficacité de ces *fatwas* et si elles furent prises en considération par les autorités politiques mameloukes à Tripoli.

Les sources arabes ne disent rien à propos des mesures prises par les Mamelouks à Tripoli envers les moines et les chrétiens dans les régions de Koura, d'Enfé et de Batroun et du littoral proche de Tripoli. Mais durant la première moitié du XIVe siècle,⁴⁸ le sultanat mamelouk a connu une propagande anti-chrétienne lancée par les juristes et les théologiens musulmans: l'incisif pamphlet contre les Chrétiens de Ġāzī Ibn al-Wāsiṭī (mort en 712/1312),⁴⁹ les livres et les *fatwas* d'Ibn Taymiyya (mort en 728/1328)⁵⁰ et d'Ibn al-Naqqāš (mort en 763/1362),⁵¹ le pamphlet

47) *Al-qawl al-muḥtār*, p. 42–50.

48) Il faut signaler que de nombreuses accusations furent portées par certains oulémas contre les chrétiens dès le milieu du XIIIe siècle. 'Uṭmān Ibn Ibrahim al-Nabulsi, *The Sword of Ambition: Bureaucratic Rivalry in Medieval Egypt*, edited and translated by Luke Yarbrough, NYU Press, 2016; Luke Yarbrough, " 'A rather small genre' : Arabic Works Against Non-Muslim State Officials", *Der Islam*, 93, 2016, p. 139-169; *Friends of the Emir. Non-Muslim State Officials in Premodern Islamic Thought*, Cambridge University Press, Cambridge, 2019.

49) Šihab al-dīn Ġāzī bin Aḥmad Ibn al-Wāsiṭī, *Kitāb radd 'ala ahl-al-ḡimma wa man tabi'ahum*, Dār al-nahḍa al-'arabiyya, Beyrouth, 2016.

50) Aḥmad Ibn Taymiyya, *Maḡmū' fatāwa*, 37 volumes, Muḡamma' al-malik Fahd li-ṭibā'at al-muṣḥaf al-šarīf, al-Madina-al-munnawara, Arabie Saoudite, 2004.

51) Ibn al-Naqqāš, *Al-maḡamma fī isti'māl ahl al-ḡimma*, édité par 'Abdallah Ibrahim bin 'Alī al-Ṭarīqī, Dār al-muslim lil-našr wal-tawzī', Arabie Saoudite, 1995.

régions.⁴⁵ De leur part, selon le chroniqueur al-Maqrīzī (mort en 845/1442), les religieux musulmans considérèrent que les *iqṭā'* devaient rester en mains des émirs, et ne pas les distribuer en petites parcelles de terrains aux soldats, parce que cette redistribution et arpentage des terres contribua à l'expansion des chrétiens et à avoir la liberté de se déplacer d'un village à l'autre ne payant de la *ḡizya* que ce qu'ils voulurent.⁴⁶ Dans ce cadre, l'auteur du « *Al-qawl al-muḥtār fī-l-man' 'an taḥyīr al-kuffār* » protesta contre la situation et le statut des chrétiens dans la province de Tripoli parce qu'ils ne furent pas affectés par le *rawk* et gardèrent leurs possessions. Il s'adressa au grand jurisconsulte Ḥanbalite Ibn Taymiyyah et autres juristes Šāfi'ites, Ḥanafites et Mālikites espérant l'obtention d'une *fatwa* de leur part pour rappeler aux autorités politiques les mesures prises contre les chrétiens depuis l'époque du prophète Muḥammad et de ses successeurs. Ibn Taymiyya et les autres juristes déclarent clairement que les moines ne doivent posséder que ce qui est strictement indispensable à leur subsistance. Ceux qui possèdent des terres agricoles et des animaux, et qui exercent le commerce et toutes les activités productives, ne sont pas exemptés de la *ḡizya* et il est légitime de les tuer s'ils incitent les gens à porter les

45) Les sources du XI^e siècle n'ont fait aucune mention d'une présence musulmane dans le Koura et Enfé. Celle-ci a dû commencer à partir du XV^e siècle. Le nombre de musulmans augmenta en tout cas progressivement, ce qui leur avait permis de se déployer et de s'installer même dans certains villages chrétiens. De plus, au début du XV^e siècle, les Ottomans firent établir des familles musulmanes dans le Koura, comme les émirs kurdes al-Ayyoubi installés par le sultan Sélim I en 1519 pour défendre le littoral. Antonios Abi Ḥaṭṭār al-'Aynṭūrīnī, *Muḥtaṣar tāriḥ ḡabal Lubnān*, annoté par Elias Kattar, Dār Lahad Khater, Beyrouth, 1983, p. 61. Dans le premier recensement ottoman de 1519, les 40 villages des deux districts Koura et Enfé se répartissaient comme suit: 30 villages habités par des chrétiens, 6 villages mixtes (chrétiens et musulmans) et 4 villages habités par des musulmans. Le nombre total des hommes mariés était alors 1854: 1508 chrétiens (81%) et 346 musulmans (19%). À Batroun, les chrétiens constituaient 68% des habitants. Isam Khalifé, *Abḥāt fī tāriḥ Lubnān fī al-'ahd al-'uṭmānī*, Hadtoun, 1995, p. 26–28; "Al-dimoḡrāfiya al-tāriḥiyya li-nāḥiyat al-Koura w Enfe fī al-qarn al-sādis 'aṣar", *Ḡawānib min tāriḥ al-Koura fī al-'ahd al-'uṭmānī*. I. *Abḥāt al-mu'tamar al-awwal li-tāriḥ al-Koura 16–23 avril 1994*, Éd. A'lamia, 1999, p. 44–45; *Al-aṭlas al-tāriḥī. Nawāḥī Lubnān fī al-qarn al-sādis 'aṣar*, Beyrouth, 2004, p. 104.

46) Al-Maqrīzī, Taqī al-Dīn Aḥmad bin 'Alī, *Al-mawā'z wal-i'tibār bi-dīkr al-ḥiṭaṭ wal-aṭār*, 1, édité par Muḥammad Zinhum et Madīḥa al-Šarqāwī, Le Caire, Maktabat Madbūlī, 1998, p. 259.



- La taxe sur les champs de cannes à sucre que possédaient les émirs (*aqṣāb al-umarā'*). Certains émirs propriétaires de terrains cultivés de cannes à sucre imposaient aux paysans une taxe d'une valeur de 3000 dirhams ou un travail équivalent à cette somme.
- La taxe du gouverneur (*'ifāyat al-niyāba*) perçue du Koura, Enfé, et Batroun. Les habitants des ces régions résidaient la nuit dans des lieux sur la côte, et lorsque ces lieux étaient remplis de soldats victorieux (*al-'asākīr al-manṣūra*), six dirhams étaient prélevés sur chaque habitant. Le montant total est 10 000 dirhams.
- La taxe du bureau du gouverneur (*ḥaqq al-dīwān*) prélevée sur les personnes engagées dans l'évaluation fiscale à Ṣahyūn et Balāṭunus (deux forteresses dans la région de Laodicée en Syrie). Le montant des recettes est 3 000 dirhams.
- La taxes sur les aires de battage (*hibat al-bayādir*) dans les régions d'al-Kahf (une forteresse dans la région de Tortose en Syrie). Il s'agissait d'une nouvelle taxe de trois dirhams par *faddān* (unité de superficie agraire qui vaut environ 4200 m²).
- La taxe sur la récolte (*ḍamān al-mustagall*) à Tripoli qui était d'abord perçue pour le bureau de la province durant les conquête (*dīwān al-niyāba bil-futūḥāt*), puis transférée pour le bureau du sultan (*al-dīwān al-ma'mūr*) pendant les mois de 716/1316. Le montant est 4000 dirhams.
- Les nouvelles taxes prélevées des paysans dans les *iqṭā'* de certains émirs, constituées d'herbe, de sel et de divers produits (*ḍiyāfa*).⁴⁴ Le montant est 6 000 dirhams.

L'abolition de certaines taxes dans la province de Tripoli montre que l'objectif du sultan al-Nāṣir Muḥammad était l'organisation des *iqṭā'* contribuant à la prospérité des régions rurales et augmentant les revenus de l'État. Le décret sultanien s'intéressa à régler le système fiscal et organiser le travail des paysans du Koura pour maintenir un meilleur rendement, particulièrement dans les champs des cannes à sucre qui requièrent une main d'oeuvre abondante, et abolit la taxe du gouverneur (*'ifāyat al-niyāba*) perçue des habitants du Koura, Enfé, et Batroun qui formaient une majorité chrétienne dans ces

44) En Égypte, comme en Syrie, la *ḍiyāfa* comprenait des animaux, des volailles, des grains, des gâteaux, etc. Sato Tsugitaka, "Fiscal", p. 30.



Saydet Kaftoun

Le sultan al-Nāṣir Muḥammad désigna le juge Šaraf al-Dīn Ya'qūb, l'administrateur de la province d'Alep (*Nāzir al-mamlakat al-ḥalabiyya*), pour diriger le *rawk*. Il se rendit à Tripoli et inspecta les régions de la province: les environs (*al-a'māl*), les forteresses (*al-qilā' wal-ḥuṣūn*), les zones frontalières (*al-tuḡūr*). Le *rawk* devint la base sur laquelle se fonda la distribution des *iqṭā'*. Ainsi, selon la nouvelle organisation des terres arables, les *iqṭā'* dans les régions de Tripoli furent attribués à six émirs *ṭablḥāna*, trois émirs de dix, et cinquante mamelouks *baḥrites* et cavaliers d'*al-ḥalqa* (non mamelouks). Le *rawk* achevé en ramadān 717/ novembre 1317, l'année fiscale fut passée de 716/1316 à 717/1317 et des taxes diverses s'élevant à un montant annuel de 110 000 dirhams furent supprimées.⁴² Selon le décret promulgué par le sultan al-Nāṣir Muḥammad, les taxes (*al-mu'āmalāt*) abolies sont comme suit:⁴³

- La taxe d'une valeur de 70000 dirhams sur les fêtes nécessitant la méfiance dans les territoires conquis (*al-afrāḥ al-maḥdūra bil-futūḥāt*). Les fêtes célébrées dans d'autres territoires qui ne requéraient pas le maintien de la sécurité (*ḍamān al-farah*) ne furent pas concernée par cette taxe.
- La taxe d'une valeur de 10000 dirhams perçue des prisons (chaque prisonnier payait une somme d'argent), à l'exception de la prison de Tripoli dont la taxe fut supprimée par un précédent décret sultanien (*marsūm šarīf*).
- La taxe perçue des paysans du Koura dans la région de Tripoli qui travaillaient dans les champs de cannes à sucre appartenant à l'État et furent après exemptés du travail. Ces paysans devaient payer une taxe en nature, une quantité de cannes à sucre d'une valeur de 2000 dirhams.

42) Al-Nuwayrī, *Nihāyat*, 32, p. 195–196.

43) Al-Nuwayrī, *Nihāyat*, 32, p. 199–200; Al-Qalqašandī, *Šubḥ*, 13, p. 34.



les ressources des chrétiens, moines et paysans, limitant leur fortune et leur exploitation des terres agricoles au détriment des musulmans. Elle constitua un appel aux dirigeants mamelouks de Tripoli de mettre la main sur toutes les possessions des moines et des paysans: églises, couvents, terres agricoles, oliviers, bétail, moulins, et autres propriétés pour les transformer en *iqṭā'* appartenant aux émirs musulmans, surtout que Tripoli et ses environs furent conquis par la force.³⁹

Le *rawk* est une sorte de relevé cadastral assorti de la redistribution des terres arables. Il comprend le métrage des champs, la vérification de leur statut légal, et l'estimation de leur rendement fiscal présumé. Ces mesures furent ordonnées par le sultan dans le but de restreindre la puissance des grands émirs et des chefs locaux, et de renforcer celle du sultan.⁴⁰ Il s'agissait d'une tentative de la part du sultan al-Nāṣir Muḥammad d'organiser la redistribution des terres agricoles qui étaient des possessions franques que les émirs mamelouks, les chefs locaux, et les ordres religieux mettaient leurs mains dessus. Le sultan voulait introduire un nouveau système de taxation, une administration fiscale fondée sur l'évaluation de la superficie des terres agricoles et leur production. En outre, le sultan avait l'intention de mettre un terme aux abus commis par les émirs et abolir les droits illégaux perçus des paysans, imposer l'ordre et éliminer les dommages causés par « *les effets du mal... et les endroits de débauche...* » répandus dans la province de Tripoli (*al-mamlakat al-Ṭrablousiyya*), et imposer l'ordre dans les villages des Nusayris (*al-Nuṣayriyya*) en construisant une mosquée dans chaque village et annuler une série de leurs coutumes religieuses.⁴¹

39) D'après al-Māwardī, selon les écoles juridiques musulmanes, les terres prises de vive forces aux infidèles sont partagées comme butin ou converties en *waqf*. Al-Māwardī, Abū al-Ḥasan 'Alī bin Muḥammad, *Al-aḥkām al-sulṭāniyya*, édité par Aḥmad Mubārak al-Baġdādī, Kuwait, Dār Ibn Qutayba, 1989, p. 162–163.

40) Heinz Halm, "Rawk", *Encyclopédie de l'Islam. Nouvelle édition*, 8, Leiden, E.J.Brill, 1995, p. 483–484; Al-Maqrīzī, *Al-sulūk*, 2, p. 488; Ibrahim Ali Ṭurḥān, *Al-nuẓum al-iqṭā'iyya fī al-šarq al-awṣat fī al-uṣūr al-wuṣṭa*, Le Caire, Dār al-kātib al-'arabī lil-ṭibā'a wal-naṣr, 1968, p. 95–98. Pour des informations sur les *rawk* effectués par le sultan al-Nāṣir Muḥammad, voir: Sato Tsugitaka, "Fiscal administration in Syria during the reign of sultan al-Nāṣir Muḥammad", *Mamluk Studies Review* 11/1 (2007), p. 19–38.

41) Al-Qalqašandī, Šihāb al-Dīn Abū al-'Abbās Aḥmad, *Ṣubḥ al-a'ṣā fī šinā'at al-inšā*, 13, Le Caire, Dār al-Kutub al-Sulṭāniyya, 1918, p. 32.

de la prise de l'île d'Arwād par les Mamelouks, les 400 archers ou sergents chrétiens syriens dans les rangs des Templiers furent décapités.³⁶ Il est très probable que ces chrétiens syriens soient aussi des Maronites des montagnes de Ġubayl pour la raison suivante: les villages des Maronites dans les hautes montagnes de Tripoli, à Ġibbat Bšarrī, subirent deux invasions mameloukes en 666/1268 et 682/1283,³⁷ et ceux des régions voisines du littoral perdirent toute efficacité après la chute de Tripoli en 687/1289 et l'échec de l'expédition militaire franque en 699/1300, alors que les montagnes de Batroun et de Ġubayl furent épargnées des campagnes militaires mameloukes. En outre, il faut prendre en considération que les Maronites de ces régions étaient toujours les alliés du seigneur franc de Ġubayl et combattaient dans les rangs de son armée: en 654/1256, durant la guerre de Saint-Sabas entre les Vénitiens et les Génois à Acre, le seigneur de Ġubayl envoya à Acre 200 archers recrutés parmi les chrétiens « *vylains de la montagne de Giblet* », qui sont sans doute des Maronites, pour y combattre aux côtés des Génois; ils furent tous tués.³⁸

Les raisons et les circonstances de la demande de fatwa concernant les chrétiens de Tripoli

Pour quelles raisons cette demande de *fatwa* est-elle faite? Pourquoi le juriste insiste-t-il sur l'expansion des chrétiens aux environs de Tripoli et sur l'augmentation des possessions des moines et leur exemption du paiement de la *ġizya*?

Cette demande fut probablement rédigée pour exprimer un refus et une protestation contre certaines mesures prises par les autorités de Tripoli à la suite du *rawk* de la province de Tripoli effectué par le sultan al-Nāṣir Muḥammad en 717/1317. Elle forma une sorte de pression sur les autorités mameloukes de Tripoli pour qu'elles opèrent selon la loi islamique les prélèvements sur

Gibeletto,... ». Eliyahu Ashtor ; Benjamin Z.Kedar, « Una guerra fra Genova e i Mamlucchi negli anni 1380 », *Archivio Storico Italiano*, 133 (1975), p. 38-39.

36) « Chronique », p. 310.

37) Ibn 'Abd al-Zāhir, Muḥyī al-Dīn, *Al-Rawḍ al-zāhir fī sīrat al-malik al-zāhir*, édité par 'Abd al-'Azīz al-Ḥuwayṭir, al-Riyād, 1976, p. 304-305; Iṣṭafān al-Duwayhī, *Tārīḥ al-azmina*, édité par Boutros Fahd, Beyrouth, Dār Lahad Khater, 1983, p. 261-262

38) « Chronique », p. 151.



ou sergents syriens) à l'île d'Arwād capitulèrent, et le seigneur de Giblet Pierre Embriaco évacua Ġubayl après l'avoir incendié.³²

D'après les informations fournies par les sources latines, il est certain que des chrétiens indigènes avaient participé aux batailles menées par les Francs pour conquérir la ville de Tripoli et le littoral. Les chrétiens des montagnes, sans doute les Maronites de Ġubayl et de Keserwān, et des chrétiens (Melkites et Jacobites) des environs côtiers de Tripoli à Koura et à Batroun, attaquèrent les Mamelouks qui se furent repliés à la suite de la bataille de Wādī al-Ḥāzindār (Homs) en 29 rabī al-awwal 699/24 décembre 1299; le chroniqueur al-Maqrīzī (mort en 845/1442) mentionna que la plupart des fuyards prirent le chemin du littoral pour aller en Égypte.³³ Outre les chrétiens, les Chiites de Keserwān participèrent également à l'attaque des Mamelouks. D'après les sources arabes, les Mamelouks punirent sévèrement les Chiites de Keserwān: en 699/1300 et 705/1305, ils lancèrent deux expéditions militaires contre eux pour avoir maltraité les fuyards mamelouks battus par les Mongols et volé leurs armes et leurs chevaux. Les sources arabes ne font pas mention des chrétiens, les Maronites en particulier, alors que les sources maronites, Ibn al-Qilāī et Iṣṭifān al-Duwayhī, affirment que les Maronites furent l'objectif des expéditions mameloukes. Keserwān fut détruit et ses habitants furent tués et déportés.³⁴ Durant cette époque, Keserwān comprenait la région qui s'étendait entre le fleuve de Beyrouth et le fleuve d'Ibrahim (Nahr Ibrahīm) à quelques kilomètres au sud de Ġubayl.³⁵ D'autre part, en 702/1303, à la suite

32) Jean Richard, *Histoire*, p. 481–482; Pierre-Vincent Claverie, « La contribution », p. 183–184; « Chronique », p. 303–310.

33) Al-Maqrīzī, *Al-sulūk*, 2, p. 321.

34) Pour des informations sur cette expédition, voir: Muḥammad Ġamāl Bārūt, *Ḥamalāt Keserwān fī al-tārīḫ al-siyāsī li-fatāwa ibn taymiyya*, Beyrouth, Al-Markaz al-'arabī lil-abḥāṭ wa dirāsāt al-siyāsāt, 2017, p. 146-156; Elias Kattar, *Niyābat Ṭarāblous fī 'ahd al-mamālīk (688-922/1289-1516)*, Beyrouth, Publications de l'université libanaise, 1998, p. 84-123; Kamal Salibi, *Maronite historians of Medieval Lebanon*, Beyrouth-Paris, Naufal Group, 1991, p. 72–74.

35) Šāliḥ bin Yaḥya, *Tārīḫ Bayrūt wa huwa aḥbār al-salaf min ḡuriyyat Buḥtur bin 'Alī amīr al-Ġarb bi-Bayrūt*, éd. Francis Hours et Kamal Salibi, Beyrouth, Dār al-Machreq, 1969, p. 9.

Dans les sources latines, le fleuve d'Ibrahim est connu sous le nom du « fleuve de Byblos »: « ... *ad alium locum ubi est flumen quod dicitur de*



Saydet al.Natour (Anfé)

et faisant prisonniers de nombreux musulmans. Mais le plan de rejoindre l'armée mongole pour mener une guerre totale ne fut pas exécuté comme prévu en raison du retard des Mongols. Ainsi, les 600 chevaliers établis sur l'île d'Arwād se retirèrent au début du mois d'avril 1301/ ša'bān 700 laissant la défense de l'île aux Templiers.³⁰ Les Francs collaboraient avec les Mongols pour recouvrer la Terre sainte, mais les alliances n'ont pas abouti.³¹ Le khan Ġāzān écrivit au pape et aux rois d'Europe pour consolider la coopération avec les Francs leur demandant d'envoyer des forces armées pour réussir à battre les Mamelouks en Syrie. En ša'bān 699/ mai 1300, le roi Jacques II d'Aragon lui envoya des galères, des nefes et des combattants demandant au khan l'attribution du cinquième de la Terre sainte. Mais toutes ces tentatives d'alliance contre les Mamelouks échouèrent. L'armée mongole ne put revenir en Syrie qu'en 701/1302 et fut battue à la bataille de Šaqḥab (ou *Marğ al-šufar*) en 2 ramadān 702/20 avril 1303. Les Francs débarqués sur le littoral pour assiéger Tripoli se retirèrent, les Templiers (120 chevaliers et 400 archers

30) Pierre-Vincent Claverie, « La contribution des Templiers de Catalogne à la défense de la Syrie franque (1290–1310) », *Egypt and Syria in the Fatimid, Ayyubid and Mamluk eras*, 3, U.Vermeulen and J.Van Steenbergen (eds), Leuven, Peeters, 2001, p. 181–182.

31) Voir sur ce sujet: Denise Aigle, « De la "non négociation" à l'alliance inaboutie. Réflexions sur la diplomatie entre les Mongols et l'Occident latin », *Oriente Moderno*, LXXXVIII, 1998, p. 395–434.





Hospitaliers. Il leur demanda de joindre la campagne que le khan Ġāzān allait mener contre les Mamelouks en Syrie. L'envoyé du khan ne reçut pas de réponse en raison de désaccords entre les Templiers et les Hospitaliers, ainsi un nouveau messenger arriva à Chypre le 5 rabī' awwal /30 novembre. Les Mongols avec leurs alliés, Georgiens et Arméniens, attaquèrent les Mamelouks sans l'aide des Francs, et le 29 rabī' awwal 699 /24 décembre 1299 remportèrent la victoire de Homs et poursuivirent les Mamelouks jusqu'à Ġāza. D'après la chronique du Templier de Tyr écrite par un historien résidant à Chypre, les paysans dans la région de Tripoli et de Ġubayl « *qui sont tous Chrétiens* » attaquèrent 4000 fuyards mamelouks battus par les Mongols et tuèrent un grand nombre d'eux; seulement 4 émirs et 300 ou 400 soldats réussirent à échapper avec leurs chevaux.²⁷ Pendant ce temps, une armée chypriote composée de 400 chevaliers et turcoples,²⁸ 60 archers et arbalétriers, arriva à Ġubayl et à Enfé sous le commandement de Guy comte de Jaffa et Jean d'Antioche. Ils firent appel aux chrétiens de la montagne pour assiéger la ville de Tripoli.²⁹ En šawwāl 699/juillet 1300, le roi de Chypre et les deux maîtres des Templiers et des Hospitaliers envoyèrent une flotte formée de 22 navires pour attaquer les côtes égyptiennes et syriennes. L'amiral de la flotte chypriote Beaudouin de Picquigny, après avoir attaqué le port de Rašīd en Égypte, remonta le long de la côte de Syrie et débarqua à Acre, Tortose et Maraclée (Maraqiya). À l'île d'Arwād, les Templiers reçurent une aide militaire d'Amaury de Tyr (frère du roi de Chypre) et du maître des Hospitaliers Guillaume de Villaret. Ils attaquèrent les villages situés sur le littoral syrien causant des destructions

27) « *Et quant les vilains de la terre de Triple & de Giblet, qy sont tous crestiens, virent venir ces amiraus & lor gent desconsis, si lor corurent sus que de tous les iiij^m n'en echaperent que les iiij amiraus & entor de iij^e ou iiij en lor compaignie, par force de chevaus, pour ce qu'il furent bien montés.* ». « *Chronique du Templier de Tyr (1242–1309)* », *Les Gestes des Chiprois, Recueil des chroniques françaises écrites en Orient aux XIIIe et XVe siècles*, publié par Gaston Raynaud, Genève, Imprimerie Jules-Guillaume Fick, 1887, p. 300–301.

28) Le turcople est un soldat turc munis d'armes légères. *Vocabulaire historique du Moyen Âge (Occident, Byzance, Islam)*, Sous la direction François-Olivier Touati, La Boutique de l'Histoire éditions, Paris, 1997, p. 273.

29) Flurio Bustron, *Chronique de l'île de Chypre*, publiée par René de Mas Latrie, Imprimerie nationale, Paris, 1884, p. 30–31; Jean Richard, *Histoire des croisades*, Paris, Fayard, 1996, p. 481.

La collaboration des chrétiens des environs de Tripoli avec les Mongols

Le juriste accusa les chrétiens des environs de Tripoli d'avoir porté les armes contre les Musulmans lors de la campagne militaire dirigée par le khan mongol Ġāzān en Syrie (*Bilād al-Šām*) en 699-700/1299-1300, et de lever la croix sur le minaret de la mosquée de Tripoli (*manārat Ṭarāblus*).²⁵

Les sources arabes gardent le silence à propos de batailles et d'affrontements entre Mongols et Mamelouks à Tripoli. Elles mentionnent seulement qu'en 699/1299, les Mamelouks subirent une défaite devant les Mongols à la bataille de Wādī al-Ḥāzindār (Ḥoms), et à la suite de l'occupation de Damas par les Mongols en 699/1299, le khan Ġāzān ne resta dans la ville qu'une courte durée et rentra dans son pays. Il désigna avant son départ son général Quṭlūšāh gouverneur des régions conquises en Syrie, et nomma l'émir Sayf al-dīn Qabğaq gouverneur (*nā'ib*) de Damas, l'émir Sayf al-dīn Baktamur gouverneur d'Alep et de Ḥama, et l'émir Sayf al-dīn al-Albakī gouverneur du littoral. En 700/1300, l'armée mongole retourna en Syrie et le khan Ġāzān mena une vaine campagne. En 702/1303, les Mamelouks remportèrent la victoire sur les Mongols à la bataille de *Šaqḥab* (ou *Marğ al-ṣufar*). Ce fut le dernier affrontement des Mongols avec les Mamelouks en Syrie.²⁶

De leur côté, les sources latines parlent d'une alliance entre le khan Ġāzān et le roi de Chypre contre les Mamelouks. Le 24 muḥarram 699/21 octobre 1299, le khan Ġāzān envoya un chrétien du nom de Cariedin (Ḥayr al-Dīn) au roi de Chypre Henri II de Lusignan et aux maîtres des ordres des Templiers et des

25) «...wa minhum man salla al-sayf ayyām al-la'īn Qāzān wa ḥaraba al-muslimīn wa rafa'a al-ṣalīb 'ala manārat Ṭarāblus...». *Al-qawl al-muḥtār*, p. 42. Le mot «*manārat*» signifie le phare, mais dans les expressions utilisées en fiqh (jurisprudence islamique) il prend le sens du minaret de la mosquée. Il s'agit de la grande mosquée de Tripoli "*al-masğid al-manşūrī al-kabīr*" construit par le sultan al-Ašraf Ḥalīl en 693/1294.

26) Al-Nuwayrī, *Nihāyat*, 31, p. 258–259 et 32, p. 16–26; Al-Maqrīzī, Taqī al-dīn Abī-l-'Abbās, *Al-sulūk li-ma'rifat duwal al-mulūk*, 2, éd. 'Abd al-Qādir 'Aṭā, Beyrouth, Dār al-kutub al-'ilmiyya, 1997, p. 328, 335–337; Al-'Aynī, Badr al-dīn Maḥmūd, *'Aqd al-ğumān fī tāriḥ ahl al-zamān*, 4, éd. Muḥammad Muḥammad Amīn, Le Caire, Dār al-kutub wal-waṭ'iq al-qawmiyya, 2010, p. 45, 122–132, 229–244.



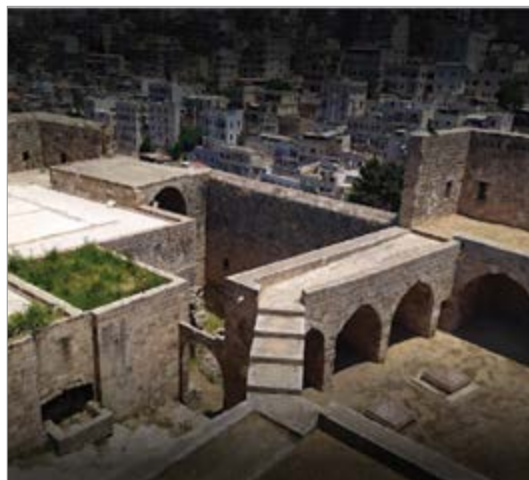
Saydet el.Riih (Anfé)

774/1373) mentionna également dans sa chronique qu'il y avait à Tripoli les fruits de la Syrie et de l'Égypte, des noix, des bananes, des cannes à sucre et de la neige, et de « *l'eau courante qui atteint de hauts endroits* ». ²⁴ Nous remarquons que l'agriculture à Tripoli et dans les régions voisines était prospère et de grandes variétés de fruits et de végétaux étaient produites. Le développement agricole à Tripoli et à ses environs était lié à deux facteurs : les vastes espaces fertiles contenant des plantations diverses et les grandes quantités d'eau qui assuraient en même temps le ravitaillement de la ville en eau et l'irrigation des vergers et des terres cultivées aux alentours. Non seulement les jardins et les vergers dans la plaine de Tripoli étaient plantés, mais sur le versant des montagnes voisines se trouvaient des cultures diverses, de l'eau, des prairies avec du bétail.

Les territoires cultivés entourant Tripoli formaient une zone d'approvisionnement très importante fournissant les différents aliments de consommation. La grande partie de ces terres riches et fertiles était exploitée par les chrétiens ce qui avait suscité la protestation des religieux musulmans tripolitains demandant les autorités religieuses et politiques de prendre les mesures convenables envers les chrétiens en se fondant sur les principes la loi islamique (*al-šarī'a*). Il semble que les autorités mameloukes à Tripoli aient adopté une politique laxiste envers les chrétiens qui formaient la majorité des habitants dans les régions voisines, et constituaient la main d'oeuvre indispensable pour l'exploitation des *iqṭā'* des émirs et des soldats mamelouks comprenant les terres agricoles les plus fertiles, particulièrement celles du littoral.

24) Ibn Kaṭīr, 'Imād al-Dīn Abū-l-Fidā', *Al-bidāya wal-nihāya*, 13, Beyrouth, Maktabat al-ma'ārif, 1988, p. 313.

dans ses environs.²⁰ Le chroniqueur Šams al-dīn al-Dimašqī décrit Tripoli et ses environs disant que « *les vergers de Tripoli regroupent des fruits qui ne se trouvent pas dans d'autres régions comme les cannes à sucre, les sycomores (al-ğumayz), les agrumes en grande quantité, le taro (al-qulqās) qu'on ne trouve pas pareil, la neige, les poissons et les oiseaux en abondance* ». ²¹ Al-Nuwayrī (mort en 733/1333) nota que dans les montagnes voisines de Tripoli poussa *al-kaṭīrā'*, un arbre qui produit une substance visqueuse de laquelle on extrayait la gomme (la tragacanthé) appelée *šamğ al-kaṭīrā'* ou *šamğ al-qatād*. Et sur le littoral de Tripoli on cultivait les petits-pois.²² Ibn Faḍlallah al-'Umarī décrit la ville de Tripoli et parla de ses environs: elle était entourée de hautes montagnes où l'air était léger, avec de l'eau, des arbres, des vignes, des prêtres, des moutons et des chèvres. Et on trouvait à Tripoli des noix, des bananes, des cannes à sucre et de la neige, et on y produisait du sucre.²³ Ibn Kaṭīr (mort en



Forteresse de Saint-Gilles (Tripoli)

20) Ibn Baṭṭūṭa, Muḥammad bin 'Abdallah, *Riḥlat Ibn Baṭṭūṭa al-musammāt tuḥfat al-nuẓẓār fī ǧarā'ib al-amṣār*, annoté par Ṭalāl Ḥarb, Beyrouth, Dār al-kutub al-'ilmiyya, 2002, p. 85.

21) Al-Dimašqī, Šams al-dīn Abū 'Abdallah Muḥammad bin Abī Ṭālib al-Anṣārī, *Nuḥbat al-dahr*, p. 207.

22) Al-Nuwayrī, Šihāb al-Dīn Aḥmad, *Nihāyat al-arab fī funūn al-adab*, Beyrouth, Dār al-kutub al-'ilmiyya, 2003, vol.8, p. 188; vol. 11, p. 198.

23) Al-'Umarī, *Masālik*, 3, p. 371.



sur le pays et les terres cultivées, et un lieu qui donne de loin sur la mer. Ce monastère est célèbre et d'une grande réputation. Les moines y sont nombreux. Et les Chrétiens le fréquentent portant leurs vœux. Et beaucoup de gens s'y rendent pour le visiter, pour se promener et se divertir». ¹⁹ On peut déduire que le monastère de Kaftūn était en pleine activité au début de la domination mamelouke et que ses moines y faisaient nombre, de même que les chrétiens des environs. La présence chrétienne au XIV^e siècle dans les régions du nord du Liban (Ġibbat Bšarrī, Koura, Batroun et Ġubayl), ne fut pas vraiment affectée par la domination mamelouke: la liberté du culte leur fut garantie. Les chrétiens formaient la majorité des habitants de ces régions. L'envoi des produits du monastère de Kaftūn aux marchés de Tripoli dénote en outre l'intégration économique de la campagne à cette ville, permettant aux ruraux d'écouler leur production, de fréquenter la ville ou de s'y installer au besoin pour y travailler.

L'attitude anti-chrétienne prise par l'auteur du «*Al-qawl al-muḥtār*» a été le résultat de la réaction des habitants musulmans de Tripoli contre la puissance progressive des religieux chrétiens qui exploitaient largement les terres agricoles sur le littoral profitant de l'exemption de la *ġizya*. Ils attiraient vers leurs terres les paysans chrétiens pour s'y installer, augmenter leurs revenus et faciliter leur déploiement dans les villes et les villages du Koura et de Batroun au voisinage de Tripoli.

Les ouvrages arabes du XIV^e siècle fournissent des informations sur Tripoli et ses environs. En 1324, Ibn Baṭṭūṭa visita Tripoli et parla de la grandeur de la ville, de la fertilité de ses vergers et de l'abondance des rivières et des arbres fruitiers

19) Al-'Umarī, Abū al-'Abbās Šihāb al-dīn Aḥmad, *Masālik al-abṣār fī mamālik al-amṣār*, 1, Beyrouth, Dār al-kutub al-'ilmiyya, 2010, p.369–370. D'après al-'Umarī, Šams al-dīn al-Tayyibī (mort en 717/1317) visita le monastère de Kaftūn et écrivit un petit poème de trois vers décrivant sa beauté marquée par la verdure et le vin délicieux. Il visita également *Dayr al-Banāt* au printemps et, en vers de poésie, décrit sa beauté et la splendeur de son ambiance. Šams al-dīn al-Tayyibī fut le secrétaire de la chancellerie de Tripoli. Ibn Taġrī Birdī, Abū al-Maḥāsīn Ġamāl al-Dīn Yūsuf, *Al-manhal al-šāfi wal-mustawfī ba'd al-wāfi*, 2, édité par Muḥammad Muḥammad Amīn, Le Caire, Al-Hay'a al-miṣriyya al-'amma lil-kitāb, 1984, p. 280.

Dès le VII^e siècle, il était répandu chez les Musulmans de fréquenter les monastères pour boire du vin et se divertir, accompagnés parfois de chanteurs et de chanteuses. Zayyāt, Ḥabīb, *Al-diyārāt al-naṣrāniyya fi-l-islām*, Beyrouth, Dar al-Machreq, 2010, p. 91–97.

fut pareil des couvents de Kfar Ḥazīr, de Bešmezzīn, etc. Pour ce qui est des églises et des monastères abandonnés par les Francs, ils furent repris par les habitants autochtones, Melkites, Jacobites et Maronites.¹⁵ Le chroniqueur Šams al-dīn al-Dimašqī (mort en 727/1327), connu sous le nom de Šayḥ al-Rabwa, décrit l'église Notre-Dame du vent (*Saydat al-Rīḥ*) à Enfé à 15 kilomètres au sud de Tripoli: «*Les Chrétiens de la ville ont une grande église et une maison qui disent qu'elle est la première maison en Syrie qui a porté le nom de Marie*».¹⁶ Par contre, les auteurs arabes ne firent pas mention des deux monastères latins de Belmont (à 16 kilomètres de Tripoli) et de Notre-Dame de la Garde (*Saydat al-Nāṭūr*) à Enfé. Les deux monastères restèrent en tout cas abandonnés durant une longue période, mais leurs terrains furent exploités par les habitants locaux. Le chroniqueur arabe Ibn Faḍlallah al-'Umarī (mort en 749/1349) ne mentionna pour la première moitié du XIV^e siècle que trois monastères dans la région de Tripoli: Ḥamāṭūra, Kaftūn et le monastère dit «des Filles» (*Dayr al-Banāt*).¹⁷ Il ne parla pas de monastères de la vallée sainte (*Qādīšā*) dans les hautes montagnes en arrière de Tripoli situées à 25 kilomètres à l'est de la ville, ni ceux du Koura et dans le haut pays de Batroun et de Jbayl. Il fournit des descriptions des monastères cités dans son ouvrage; celle de Kaftūn reste néanmoins remarquable: «*il est dans le pays de Tripoli. Construit sur une montagne. C'est un grand monastère. Son édifice, en pierre et en chaux, est d'une excellente qualité. Il comprend de l'eau coulante. Et il a un grand enclos plein d'arbres d'oranges amères (al-nārang)*¹⁸, portées à Tripoli et y vendues. Les moines en tirent profit. Il a une terrasse qui donne

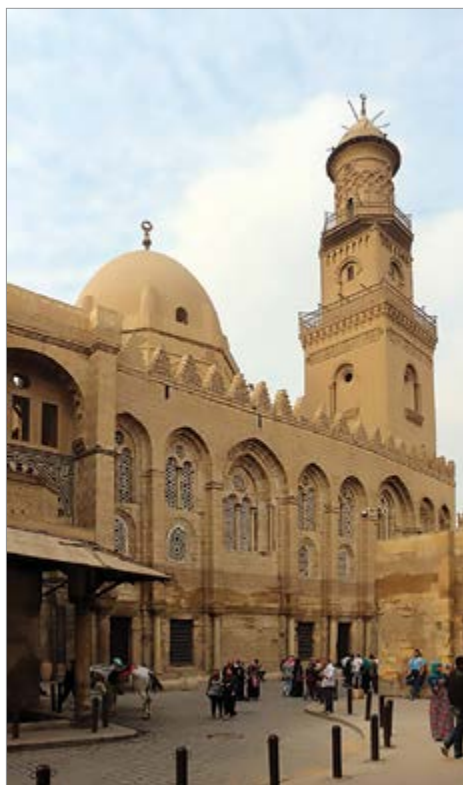
les Maronites de Tripoli s'allièrent à l'Église latine, alors que les Maronites de Ḥadaṭ (Ġibbit Bšarrī) refusèrent l'union avec Rome. Kamal Salibi, *Muntalaq tārīḥ Lubnān. 634-1516*, Beyrouth, Dār Nawfal 1992, p. 94–95.

15) Pierre Moukarzel, "Le Koura: Une approche de démographie historique", *Un métissage de cultures. L'architecture sacrée du diocèse orthodoxe de Tripoli. Tome 2. Le Koura*, sous la direction de May Davie, Publications de l'Université de Balamand, 2021, p.53–54.

16) Al-Dimašqī, Šams al-dīn Abū 'Abdallah Muḥammad bin Abī Ṭālib al-Anṣārī, *Nuḥbat al-dahr fī 'aḡa'ib al-barr wal-baḥr*, Leipzig, 1923, p. 208–209.

17) Le monastère des Filles (*Dayr al-Banāt*) se situe à Ġubayl. Il s'agit du monastère maronite de Notre-Dame des Secours (*Saydat al-Ma'ūnāt*).

18) Cette espèce d'orange est connue aujourd'hui au Liban sous le nom d'Abū Ṣfayr.



Mosque Qalawūn

Ces informations nous permettent de conclure que, sous les Mamelouks, les chrétiens dans les régions voisines de Tripoli finirent par recouvrer une grande partie des propriétés des Francs. Les plaintes menées contre eux par des musulmans résultaient peut-être de ces avantages et de la croissance de leur nombre et de celui de leurs moines dans l'arrière-pays de la ville de Tripoli. Dans les régions voisines de Tripoli, à Koura, Enfé et Batroun, les églises et les couvents occupés par les Latins furent épargnés de la destruction. Certains furent même remis par les émirs mamelouks à leurs propriétaires d'avant les Croisades. Ce fut le cas du couvent de Kaftūn à Koura qui fut évacué par les moines maronites¹⁴ et rendu aux Melkites en 683/1284. Il en

ruhbān wa 'amila fidan al-dayr wa ihtama 'an idā' al-ġizya...». Al-qawl al-muhtār fil-man' 'an taḥyir al-kuffār, Manuscrit numéro 3049, Arabie Saoudite, Maktabat al-Malik 'Abd al-'Aziz al-'Āmmat, p. 42.

14) Il est possible aussi que les Maronites aient évacué le monastère à cause de la situation troublée de leur Église suite au schisme de 681/1282:



Mosque Abul Fida (Hama)

des chrétiens habitant la région de Tripoli au début du XIV^e siècle en essayant de répondre aux questions suivantes: Quelles étaient les raisons et les circonstances d'émettre cette demande de *fatwa*? Les avis proposés et les accusations menées par le juriste étaient-ils admis par les autorités politiques?

La présence chrétienne aux environs de Tripoli

Dans le « *Al-qawl al-muḥtār fī-l-man' 'an taḥyīr al-kuffār* », des plaintes furent adressées contre les monastères de la région de Tripoli concernant la collecte des impôts, *al-ḡizya* en particulier,¹¹ pour assurer l'entretien et les dépenses de la grande mosquée de Tripoli. Le texte rapporte que les moines étaient très nombreux et que des paysans quittaient les *iqṭā'*¹² des soldats et rejoignaient les moines souvent pour échapper à l'acquittement de l'impôt. En outre, les monastères possédaient en *waqf* de vastes terrains plantés d'arbres fruitiers et d'oliviers sur le littoral, de même que des moulins, des pressoirs et des troupeaux de vaches et de moutons. Il accusa également les religieux chrétiens d'avoir louer les régions (*bilād*) des soldats, bénéficier de leurs revenus, récolter les fruits, presser les olives et louer les pressoirs.¹³

11) Pour des informations sur le tarif de la *ḡizya*, voir: Antoine Fattal, *Le statut légal des non-musulmans en pays d'Islam*, Beyrouth, Dār El-Machreq, 1995, p. 276–284.

12) Il s'agit des revenus d'une concession foncière attribués par l'État musulman concerné, en l'échange de services, le plus souvent militaires. Pour des informations sur l'*iqṭā'*, voir: Claude Cahen, « *iqṭā'* », *Encyclopédie de l'islam*, III, Leiden, E.J.Brill, 1971, p. 1115–1118.

13) «...wa yasta'ḡirūn al-bilād min al-ḡund wa yazra'ūnahā wa yaḍmanūn al-ṭīmār wa yasta'milūnahā wal-zaytūn wa ya'sirūnahū wa yaḍmanūn al-ma'āšir wa yatakassabūn fihā... wa qad baṭūna bi sabab ha'ūlā' al-ruhbān yaqa' šarr lil-ḡund li-anna kaṭīran min al-fallāḥīn taraka filāḥatahu fī iqtā'āt al-ḡund wa labisa šī'ār al-

fatwa aux théologiens et juristes de son temps appartenant aux quatre écoles juridiques musulmanes (*maḏāhib*) en se fondant sur les *fatwas* et les avis juridiques donnés par Ibn Taymiyyah (mort en 728/1328), Ibn al-Šarīšī (mort en 779/1378), Burhān al-Dīn Ibn al-Farkāḥ (mort en 729/1329), Ibn ‘Abd al-Ḥaqq al-Ḥanafī (mort en 761/1360), Šams al-Dīn al-Ḥarīrī (mort en 728/1328), Šaraf al-Dīn ‘Isa al-Zuwāwī (mort en 743/1342), Zayn al-Dīn al-Kinānī (mort en 749/1348), et ‘Alā’ al-Dīn al-Bāḡī (mort en 714/1314).⁹ L’auteur est probablement un juriste ḥanbalite, et on ne peut pas exclure l’hypothèse qu’il soit un religieux tripolite vu qu’il s’intéressait au statut des chrétiens vivant aux environs de la ville.¹⁰

Dans cet article, je ne m’intéresserai pas au côté juridique du document. J’étudierai et analyserai les informations en rapport avec les chrétiens des environs de Tripoli pour retracer le cadre historique des événements qui ont influencé la situation

Il fut mentionné pour la première fois dans : Ismā‘īl Bāšā al-Baḡdādī, *Idāḥ al-maknūn fi-l-dayl ‘ala kašf al-zunūn ‘an asāmī al-kutub wal-funūn*, volume 2, Beyrouth, Dār iḥyā’ al-turāt al-‘arabī, 1947, p. 253.

9) Le texte fut étudié par Luke Yarbrough du côté juridique en le comparant à d’autres textes religieux et *fatwas* concernant les chrétiens, le statut des moines et les églises en terre d’Islam. Luke Yarbrough, «Al-qawl al-muḥtār fil-man’ ‘an taḥyīr al-kuffār», *Christian-Muslim relations: A bibliographical history, vol.4 (1200-1350)*, edited by Davis Thomas and Alex Mallet, et al. (eds), Leiden, Brill, 2013, p. 924–927.

En 2017, Luke Yarbrough a présenté une intervention bien documentée lors d’un colloque à l’Université américaine de Beyrouth précisément sur cette demande de *fatwa* et sur les réponses apportées par neuf juristes sunnites rattachés à différentes écoles juridiques du sunnisme. Mais il n’a pas donné un cadre historique complet des principaux événements concernant la présence des chrétiens dans les régions voisines de Tripoli: le reproche qu’on peut lui adresser c’est qu’il n’a pas trouvé une source qui prouve que les chrétiens locaux ont attaqué Tripoli en 1300, et n’a fait aucune mention du *rawk* tripolite en 1317 bien qu’il ait été en faveur des chrétiens des environs de Tripoli suscitant la protestation des religieux musulmans. Son intérêt fut concentré sur le côté juridique du document. Communication de Luke Yarbrough est filmée et accessible en ligne:

https://www.academia.edu/34991204/New_Fatwas_on_Syrian_Monks_Poll_Tax_and_Churches_from_the_Early_Eighth_Fourteenth_Century.

10) Luke Yarbrough considère, d’après certaines erreurs juridiques qu’il commet, que l’auteur n’était pas un juriste, mais sans doute officier dans l’armée mamelouke.



Mosque Abul Fida (Bosra Cham)

L'auteur cita un certain nombre de versets et de *ḥadīṭ* concernant la présence des *dimmī* en pays d'Islam durant des périodes différentes, et se référa à des interprétations (*tafāsīr*) telles que Ibn Ġarīr (mort en 310/923), Ibn Abī Ḥātim (mort en 327/938), al-Rāzī (mort en 606/1210) et al-Qurṭubī (671/1273), et parmi les personnalités éminentes 'Abdallah bin Taymiyyah al-Ḥaṭīb (622/1225), Ibn Rāšid (721/1321), Munḍir bin Sa'īd al-Balūṭī (355/966), Abū al-Šayḥ al-Ašbahānī (369/979), ainsi qu'al-Nawawī (676/1277) et Ibn 'Aqīl (513/1119), et Abū al-'Abbās Ibn Taymiyyah (mort en 728/1328), et mentionna des avis de différents juristes présentant les courants juridiques influents de son époque à l'appui de ce qu'il dit des *dimmī*. Ce qui marque l'originalité de ce document et le distingue des autres textes juridiques de son temps c'est qu'il contient des informations qui traitent de la région de Tripoli et des populations chrétiennes qui y vivaient. Le texte contient un *istiftā'* (une demande de *fatwa*) traitant le statut des chrétiens en pays d'Islam, spécifiant un paragraphe concernant la présence chrétienne, les moines, les monastères et les églises et leurs dépendances, les paysans aux environs de Tripoli, ainsi que la collaboration des chrétiens dans les régions de Tripoli avec le khan mongol Ġāzān lors de l'expédition militaire menée contre les Mamelouks en 699-700/1299-1300. Le document est intitulé « *al-qawl al-muḥtār fī-l-man' 'an taḥyīr al-kuffār* » et son auteur est inconnu.⁸ Il adresse sa demande de

8) Le document manuscrit est conservé à la bibliothèque publique du roi 'Abd al-'Azīz en Arabie Saoudite, cote 3049. Il est accessible en ligne sur le site de la bibliothèque: library.kapl.org.sa.

Il existe une reproduction lithographiée du manuscrit édité à Téhéran en 1847: Faḍl bin 'Alwī bin Muḥammad, *al-qawl al-muḥtār fī-l-man' 'an taḥyīr al-kuffār*, Téhéran, 1847.



Abul Fida

comte de Tripoli Bohémond VII.⁴ Sans doute une partie des anciens habitants chrétiens, particulièrement les Melkites (Orthodoxes) et les Jacobites (Syriaques Orthodoxes), retournèrent à la nouvelle ville, tandis que d'autres venaient des régions voisines: pour les chrétiens orthodoxes, plusieurs auraient quitté le Koura ou le Wādī al-Naṣārā rétablissant ainsi les liens sociaux et économiques de la population locale entre la capitale et celle des régions avoisinantes.⁵ Les Maronites ne retournèrent plus à la

ville: la plus grande partie d'eux habitait les hautes montagnes (Ġibbat Bṣarri) et les régions de Ġubayl (Byblos) et Batroun.

Seulement deux villes restèrent aux mains des Francs: les Templiers conservèrent l'île d'Arwād, au sud de Tortose, jusqu'en 702/1303, et le seigneur de Giblest (Ġubayl), Pierre Embriaco, garda son fief jusqu'en 706/1307.⁶

Un manuscrit inédit, composé de 51 pages, rédigé durant le troisième règne du sultan al-Malik al-Nāṣir Muḥammad (709-741/1309-1341),⁷ et précisément après l'année 728/1328 puisqu'il mentionne le nom du juriste Ibn Taymiyya (mort en 728/1328) suivi de l'expression "*raḥimahu Allah ta'āla*" (Que Dieu Tout-Puissant lui fasse miséricorde), compilant les réponses des juristes fournies durant une période allant probablement de l'année 1300 lors de l'invasion mongole jusqu'à 1317 la date du *rawk* tripolitein.

4) C'est l'église Notre-Dame dans le quartier al-Barrāniyyeh restaurée le 22 juillet 1924 par l'évêque maronite Anṭūn 'Arīḍa. 'Umar 'Abd al-Salām Tadmūrī, «Al-muslimūn wal-naṣārā fī ṭarāblus. malāmiḥ min al-tārīḥ al-muṣṭarak», *Ṭarāblus wa taḥādīyyāt al-'ayṣ al-wāḥid min ḥilāl al-wathā'iq wal-siyar wal-tawārīḥ*, Actes du colloque de Tripoli organisé le 27–28 Mars 2009, Tripoli, Dār maktabat al-'īmān, 2010, p. 38.

5) Antoine Abdelnour, *Introduction à l'histoire urbaine de la Syrie ottomane (XVI^e-XVIII^e siècle)*, Beyrouth, Publications de l'Université libanaise, 1982, p. 308.

6) René Grousset, *Histoire des croisades III. 1188–1291. L'anarchie franque*, Paris, éditions Perrin, 2006, p. 731, 747, 849 note 146.

7) Le sultan al-Malik al-Nāṣir Muḥammad régna trois fois: 693–694/1293–1294; 698–708/1299–1309; 709–741/1309–1341.

Les chrétiens des régions voisines de Tripoli au début du XIV^e siècle d'après un *istiftā'*

Pierre Moukarzel

Professeur d'histoire médiévale
à l'université libanaise

En 687/1289, Tripoli fut conquise par les Mamelouks après un siège d'un mois, du 25 mars jusqu'au 27 avril. D'après Abū al-Fidā' (mort en 732/1331) qui était présent lors de l'attaque de la ville, un petit nombre de gens arrivèrent à se sauver par bateaux, la plupart avaient été tués et leurs enfants emprisonnés. Et quand les assaillants eurent terminé le pillage et les meurtres, le sultan al-Manṣūr Qalāwūn (678–689/1279–1290) ordonna la destruction de Tripoli et le rasage complet de tous ses bâtiments.¹ La population franque fut anéantie, les églises et les couvents latins furent détruits, ou transformés en mosquées ou en bâtiments.² Les Mamelouks décidèrent de relocaliser Tripoli à environ 4 kilomètres de la côte au pied de la forteresse de Saint-Gilles aux abords de la rivière Abū 'Alī.³ Tripoli devint une capitale de province (*niyābat*). Le sultan Qalāwūn fit installer les chrétiens indigènes dans un quartier près de la forteresse (*maḥallat ḥoṣn ṣanḡīl*) et leur garda une église construite en 684/1286 par le

1) Abū al-Fidā', Ismā'īl bin 'Alī bin Maḥmūd bin Muḥammad bin 'Umar, *Al-Muḥtaṣar fī aḥbār al-baṣār*, vol. IV, édité par Muḥammad Zīnhum 'Arab et Yaḥyā Sayyid Ḥusayn, Dār al-Ma'ārif, Le Caire, s.d., p. 32–33.

2) L'évêché latin de Tripoli n'a pas disparu bien que son siège n'ait plus existé à Tripoli après la chute de la ville en 687/1289. Ce siège ne fut pas supprimé et fut maintenu son titre en Occident avec l'espoir d'en reprendre possession. Il fut mentionné dans les sources jusqu'au début de la deuxième moitié du XVe siècle: après 1451, Benoît de Adoaria, de l'ordre des Frères mineurs, fut nommé évêque de Tripoli *Dictionnaire universel, dogmatique, canonique, historique, géographique et chronologique des sciences ecclésiastiques*, Tome 5, par le R.P. Richard et autres Religieux Dominicains des couvents du faubourg Saint-Germain et de la rue Saint-Honoré, Paris, 1762, p. 441.

3) Voir sur ce sujet: Albrecht Fuess, « Déplacer une ville au temps des Mamelouks: Le cas de Tripoli », *Chronos* 19 (2009), p. 157–170.

Patrimoine Historique

Pierre Moukarzel

Les chrétiens des régions voisines de Tripoli
au début du XIV^e siècle d'après un *istiftā'*

- HOYOS Dexter, *Mastering the West: Rome and Carthage at War*, Oxford University Press, Madison Avenue, New York, 2015.
- KLINGBEIL Pierre-Emmanuel, « La marche d'Hannibal: ravitaillement et stratégie », *Antiquités africaines*, 36, 2000. pp. 15-38.
- KRINGS Véronique (éd.), *La civilisation phénicienne et punique: manuel de recherche*, Leiden – New-YORK – Köln, Brill, 1995.
- KRINGS Véronique, *Carthage et les Grecs C. 580-480 AV. J.-C., Textes et histoires*, Leiden – Boston – Köln, Brill, 1998.
- Le GLAY Marcel(réédition) – VOISIN, Jean Louis – Le BOHEC, Yann, *Histoire romaine*, 3ème édition, PUF, 1999.
- LIMONIER Fabien, « Rome et la destruction de Carthage: un crime gratuit ? », *Revue des Études Anciennes*, Tome 101, 1999, n 3-4. pp. 405-411.
- MARTIN Jean-Pierre-CHAUVOT, Alain-CEBEILLAC-GERVASONI, Mireille, *Histoire romaine*, 3ème édition, Armand Colin, 2013.
- OUMLIL Ali, *L'Histoire et son discours – Essai sur la méthodologie d'Ibn khaldūn*, éditions techniques Nord-Africaines, Rabat, 1979.
- PASHOUD Francois, « Orose », *Dictionnaire Encyclopédique du Christianisme ancien*, 2 tomes, Sous la direction de François Vial, Cerf, Belgique, 1990, tome II, p. 1841.
- PELLETIER Agnès, « Les hispani et l'hispania de Tite Live », *Mélanges de la Casa de Velázquez*, tome 22, 1986. pp. 5-25.
- PERRIN Yves – BAUZOU, Thomas, *De la cité à l'Empire: Histoire de Rome*, 2ème édition, ellipses, 2004.
- QUIN Josephine C., « Tophets in the 'Punic World' », *The Tophet in the Phoenician Mediterranean*, SEL, pp. 23-48.
- STAVRAKOPOULOU Francesca, « The Jerusalem Tophet. Ideological Dispute and Religious Transformation », *The Tophet in the Phoenician Mediterranean*, SEL, pp. 137-158.
- WAGNER Carlos G., « Carthaginians in Spain », In: « E. LIPINSKI & H. DEVIJVER, *Punic wars*, Peeters Press – Louvain, 1989, p. 145-156.
- XELLA Paolo, "Introduction: Tophet as a Historical Problem", *The Tophet in the Phoenician Mediterranean*, SEL, pp. III-X.

Sources

- DIODORE DE SICILE, *Bibliothèque historique*, XIV–XVI, Texte établi et traduit par B. BOMMELAER, les belles lettres, Paris, 1972–1989.
- Florus, *ABRÉGÉ DE L'HISTOIRE ROMAINE*, La traduction du livre I est celle tirée de la Collection des Auteurs latins publiés sous la direction de M. Nisard: Salluste, Jules César, C. Velleius Paterculus et A. Florus. Paris, Firmin Didot, 1865.
- Ibn khaldūn, *Kitab-el – Eībar, wa Diwan-el-Mobtedâ wal-khaber, fi Aiyam il-'Arab wal – Adjem wal-Berber* (*Livres des exemples instructifs et recueil d'origines et de récits, concernant l'histoire des Arabes, de peuples étrangers et des Berbères*), Dar al Kitab al Ioubnani, Beyrouth, 3ème édition, 1966–1968.
- Justin, *Abrégée des histoires Philippiques de Trogue Pompée*, traduction nouvelle de E.CHAMBRY et L.THELY-CHAMBRY, Librairie Garnier, Paris, s.d.
- Orose, *Histoires contre les païens*, 3 Tomes, éd. et trad. M.-P. Arnaud-Lindet, Les Belles Lettres, Paris, 1991–1992.
- SILIUS ITALICUS, *La guerre punique*, trad. P. MINICONI – G. DEVALLET–J. VOLPILHAC – LENTHERIC – M. MARTIN, Paris, 1992.
- Tite-Live, *Histoire romaine. La libération de la Grèce. Livres XXXI à XXXV*, Paris, Garnier-Flammarion, 1997.
- Tite-Live, *La seconde guerre punique I–II, Histoire romaine. Livres XXI à XXX*, Paris, Garnier- Flammarion, 1993.
- POLYBE, *Histoires*, texte établi et traduit par P. PEDECH, les belles lettres, Paris, 1977–1991.

Biobibliographie

- BONNET Corinne, « les connotations sacrées de la destruction de Carthage », « E. LIPINSKI & H. DEVIJVER, *Orientalia Lovaniensia Analetica – Studia Phoenicia X: Punic wars*, Peeters Press – Louvain, 1989, pp. 290–291.
- FANTAR M'hamed, *Carthage – Approche d'une civilisation, II tomes*, Alif, Tunis, 1993.
- FRONDA Michael, *Between Rome and Carthage: Southern Italy during the Second Punic War*, McGill University, Cambridge University Press, New York, 2010.
- HOYOS Dexter, *Carthage's Other Wars: Carthaginian Warfare Outside the 'Punic Wars' Against Rome*, Pen & Sword Books Ltd Yorkshire – Philadelphia, 2019.

utilisées par Ibn Khaldûn qui l'appelle « *Horoshiush* », et le qualifie parfois « *d'historien des Rum* ». Ce livre d'Orose, nous apprend Ibn Khaldûn, a été traduit à Cordoue, sous l'ordre de calife Omeyyade al-Hakam al Mustansir (961–976). En effet, Ibn Khaldûn fut le seul historien arabe qui a amplement utilisé l'histoire d'Orose dans sa compilation de l'histoire générale, on le trouve dans ses récits de l'histoire persane, grecque, romaine¹⁶², juive et chrétienne¹⁶³.



Ibn Khaldûn

Abréviations

- *DA* = *Dictionnaire de l'Antiquité*, publié sous la direction de J. LECLANT, PUF, Paris, 2005.
- *El 2* = *Encyclopédie de l'Islam, Tome III*, nouvelle édition, Leiden – E.J. Brill, 1971.
- *DECA* = *Dictionnaire Encyclopédique du Christianisme ancien*, 2 Tomes, Sous la direction de François Vial, Cerf, Belgique, 1990.
- *DCPP* = LIPINSKI Edward, *Dictionnaire de la civilisation phénicienne et punique*, Brepols, 1992.

SEL = *STUDI EPIGRAFICI E LINGUISTICI sul Vicino Oriente antico*–*NUOVA SERI Ricerche storiche e filologiche sulle culture del Vicino Oriente e del Mediterraneo antico*, 29–30, The Tophet in the Phoenicia Mediterranean Edited by P. Xella, Rome, 2012–2013.

162) On peut lire l'histoire des guerres puniques: Ibn khaldûn, *Kitab-el -Eîbar, wa Diwan-el-Mobtedâ wal-khaber, fi Aiyam il-'Arab wal- Adjem wal-Berber, II*, Dar al Kitab al Ioubnani, Beyrouth, 3ème édition, 1966, pp. 402–404.

163) Avant Ibn khaldûn, Ibn Juljul qui semble être le premier auteur musulman à avoir cité Orose. Les biographes d'Ibn Juljul donnent rarement les dates de sa naissance (944) et de sa mort (vers 987). A. OUMLIL, *L'Histoire et son discours – Essai sur la méthodologie d'Ibn khaldûn*, éditions techniques Nord-Africaines, Rabat, 1979, pp. 120–121.

dans l'histoire de Rome¹⁵⁷. Ainsi Orose affirme qu'après la destruction de Carthage, «*se meurt chez les Romains l'utile collaboration, fruit de la prévoyance, et naît l'infâme rivalité, issue de l'ambition*»¹⁵⁸. Puis il écrivit : «*en 627 après la fondation de Rome, sous le consulat de L. Cécilius Metellus et de Q. Titius Flaminis*159, en Afrique, Carthage dont on avait ordonné la reconstruction la vingt-deuxième année seulement après qu'elle avait été détruite, elle fut reconstruite et repeuplée par les familles de citoyens romains qui y avaient été amenées pour l'habiter...on balançait longtemps, en se demandant si restaurer Carthage serait, ou non, avantageux pour la paix romaine»¹⁶⁰.

Conclusion

Orose croit que la providence conduit l'histoire. D'après lui Carthage fut à son apogée, exerça l'hégémonie sur l'Afrique entière, étendit son royaume à la Sicile, la Sardaigne, et aux autres îles voisines, et de même en Espagne. Mais sa suprématie n'est pas atemporelle, il écrit : «*Dieu est l'unique juge de tous les siècles, de tous les royaumes et de toutes les situations. De sa fondation jusqu'à sa ruine, le royaume carthaginois dura un peu plus de sept cents ans*». Orose conclut que le sort de tous les royaumes est semblable. De ce fait, le royaume macédonien dura encore un peu moins de sept cents ans, de même pour Rome quand elle fut envahie par les Goths¹⁶¹.

Au fait, l'étude d'Orose nous conduit à la synthèse suivante : son histoire est influencée par une idéologie religieuse, mais son livre reste une source indispensable à l'étude des guerres puniques, puisqu'il est riche en informations. Il est évident qu'il n'a pas marqué les historiens classiques ni les historiens chrétiens. Par contre, nous le trouvons parmi les sources

157) Corinne BONNET, «les connotations sacrées de la destruction de Carthage», «E. LIPINSKI & H. DEVIJVER, *Orientalia Lovaniensia Analecta – Studia Phoenicia X: Punic wars*, Peeters Press – Louvain, 1989, pp. 290–291.

158) Orose, V, 8, 2.

159) L. Cécilius Metellus et de Q. Titius Flaminis, consuls en 123 av. J.-C. La date d'Orose est plus haute de quatre ans.

160) Orose, V, 12, 1–2.

161) Orose, VII, 2, 4–9.

l'épouse d'Hasdrubal se jette au milieu du brasier, elle-même et ses deux fils. Orose écrivit que la dernière reine de Carthage trouva dans la mort la même issue que la première reine y avait jadis trouvée. Quant à la cité elle – même, elle fut brûlée pendant dix-sept jours de suite et offrit « à ses vainqueurs le malheureux spectacle du caractère changeant de la condition humaine »¹⁵³.

Carthage fut donc détruite, « la sept centième année après sa fondation », toute la foule des captifs fut mise en vente, à l'exception de quelques notables. C'est Ainsi que la troisième guerre punique fut finie. Orose essaie de mettre en évidence les avis des Romains vis-à-vis des causes qui ont poussé les Romains à détruire Carthage: Puis il écrivit: « je trouve que la cause de la guerre ne procéda pas d'un manquement au droit de la part des Carthaginois provocateurs, mais de l'humeur changeante des Romains qui s'engourdisaient. S'il en est ainsi, pourquoi imputent-ils aux temps chrétiens leur émoussement et leur rouille, qui les rend épais à l'extérieur, rongés à l'intérieur? Eux qui, ajouterais-je, il y a près de six cents ans, comme les leurs, prévoyants et inquiets, l'avaient prédit, perdirent en Carthage, cette grande pierre à aiguiser de leur éclat et de leur acuité »¹⁵⁴. L'écho de la discussion qui eut lieu au sénat sur la reprise des hostilités contre Carthage avant le début de la troisième guerre punique, fut conservée par Florus¹⁵⁵.

La disparition de Carthage fut un indice pour les anciens sur la mauvaise foi des Romains et leur impérialisme¹⁵⁶, devenu impitoyable. Cette guerre fut donc ressentie comme un tournant

153) Orose, IV, 23, –5.

154) Orose, IV, 23, 9–10

155) Florus écrivit « La troisième guerre contre l'Afrique fut de courte durée, puisqu'on l'acheva en quatre ans; et très peu pénible, en comparaison des deux premières, puisqu'on eut à combattre moins contre des hommes que contre des murs; mais elle fut sans contredit la plus importante par son résultat, puisque Carthage finit avec elle. Si l'on veut déterminer le caractère de ces trois époques, on verra la guerre engagée dans la première, poussée avec vigueur dans la seconde, mais terminée dans la troisième ». Florus, II, XV.

156) Pour plus de détails sur les causes qui ont poussé les romains à détruire Carthage lors de la troisième guerre punique, on peut lire: Fabien LIMONIER, « Rome et la destruction de Carthage: un crime gratuit ? », *Revue des Études Anciennes*, Tome 101, 1999, n 3–4. pp. 405–411.

La troisième guerre Punique

Les chapitres 22 et 23 traitent rapidement de la troisième guerre punique. Elle débuta selon Orose en 602 après la fondation de Rome, sous le consulat de L. Censorinus et de M. Manlius¹⁴⁷. Le sénat décida de détruire Carthage, les consuls et Scipion, alors tribun militaire, partirent pour l'Afrique, occupèrent, près d'Utique, un premier camp. Les Carthaginois furent sommés de livrer ses armes et ses navires sans délai : « *Une si grande quantité d'armes fut livrée à l'instant* ». Mais après, les Carthaginois furent sommés de se retirer, en abandonnant leur ville, à dix mille pas de la mer. Alors ils refusèrent, et se préparèrent de nouveau à la guerre, et se donnèrent pour chefs les deux Hasdrubal. La guerre commença, les Carthaginois subirent leur dernière défaite¹⁴⁸.

« *En 606 après la fondation de Rome, C'est-à-dire la cinquantième après la seconde guerre punique, sous le consulat de Cn. Cornelius Lentulus et de L. Mummius¹⁴⁹, P. Scipion¹⁵⁰ qui avait préparé une dernière tentative pour détruire Carthage, entre dans Cothon¹⁵¹. Tandis que l'on y combat pendant six jours et six nuit de suite, un extrême désespoir entraîna à la capitulation les Carthaginois: Ils demandent qu'il soit à tous le moins permis d'être esclave à ceux que les désastres de la guerre avaient épargnés¹⁵²* ». La tradition dit qu'il eut vingt-cinq mille femmes et trente mille hommes. Le roi Hasdrubal se livra de lui-même. Les déserteurs qui avaient occupé le temple d'Esculape se mettent à mort en se jetant volontairement dans les flammes. Même

147) L. Marcius Censorinus et de M. Manlius consuls en 149 av. J.-C. c'est en 605 avant la fondation de Rome et non pas en 602 comme a indiqué Orose. Pour plus de détails, Cf. Orose, Notes complémentaires, tome II, p. 250.

148) pour plus de détails: Orose, IV, 22, 1–8.

149) Cn. Cornelius Lentulus et de L. Mummius consuls en 608 après la fondation de Rome (146 av. J.-C.). La date 606 donnée par Orose, la cinquantième année après la deuxième guerre punique n'est pas même compatible avec les indications de 22,1 et 23, 7, et 20,1 de livre IV. Pour plus de détails: Orose, Notes complémentaires, tome II, p. 250.

150) Scipion est élu consul par les comices en 148 pour 147 av. J.-C. Pour plus de détails: Orose, Notes complémentaires, tome II, p. 250.

151) Les anciens nommaient Cothon l'ensemble formé par les deux ports artificiels de Carthage, port marchand et port de guerre. Pour plus de détails: Orose, Notes complémentaires, tome II, p. 250.

152) Orose, IV, 23, 1–2.

Donc, sous le consulat de Cn. Cornelius Lentulus et de P. Aelius Paetus¹⁴⁰, la paix fut donnée aux Carthaginois selon la volonté des Romains. « *En 546 après la fondation de Rome, se termina la deuxième guerre punique qui durera dix-sept ans* »¹⁴¹. Scipion, surnommé dès ce moment l'Africain, entra en triomphe à Rome, derrière son char, l'auteur comique Térence, l'un des prisonniers carthaginois nobles¹⁴². Orose identifia par erreur, Terence au sénateur Térentius Culléo dont parle Tite-Live¹⁴³, c'est ce dernier qui était captif puis délivré par Scipion. Mais Orose ne mentionne pas les conséquences politiques, démographiques, économiques et financières de la deuxième guerre punique¹⁴⁴. Même il ne laisse que peu d'informations sur le sort d'Hannibal¹⁴⁵, qui fut élu en 197, puis il se retira, car Rome n'accepta pas qu'il soit à la tête de la cité. Il passa au service du roi séleucide Antiochos III, puis l'Arménie, puis chez Prusias, le roi de Bétanie. Mais une fois de plus, trahi et isolé, il s'empoisonna, « *parce qu'il était réclamé par les Romains* »¹⁴⁶. Il avait 63 ans.



Buste de Tite-Live par Andrea Briosco

140) Consuls en 201 av. J.-C.

141) Orose, IV, 20, 1; la datation de la fin de la deuxième guerre punique (546 = 208 av. J.-C.), et haute de sept ans par rapport à la chronologie connue.

142) Orose, IV, 19, 5–6.

143) Tite-Live, XXX, 43, 11; 45, 5.

144) Sur ces conséquences, on peut consulter: Dexter HOYOS, *Mastering the West: Rome and Carthage at War*, pp. 219–226.

145) Orose, IV, 20, 13, 18, 22, 29.

146) Orose, IV, 20, 29.

réalisa plusieurs victoires¹³³. Hannibal reçut l'ordre de revenir en Afrique pour défendre les carthaginois épuisés¹³⁴. Il quitta l'Italie (automne 203 av. J.-C.) après avoir tués tous les soldats d'origine italique qui ne voulaient pas le suivre, et il débarqua ses troupes près de la place de Lepti¹³⁵. Il vint immédiatement à Carthage, puis demanda un entretien à Scipion. « *Là, quand les deux plus illustre généraux se furent longtemps contemplés, stupéfaits d'admiration mutuelle, les négociations de paix ayant échoué, le combat s'engagea* »¹³⁶. Les Romains menèrent la victoire dans cette bataille en 202 av. J.-C.¹³⁷, « *Quatre-vingts éléphants y furent pris ou mis à mort, vingt-mille cinq cents Carthaginois furent tués. Hannibal, qui avait tout tenté, et avant et pendant le combat, s'étant échappé au milieu du désordre avec quelques-uns, à savoir quatre cavaliers à peine, se refugia à Hadrumète*¹³⁸. Ensuite il vint à Carthage, trente-six ans après l'avoir quittée, enfant, avec son père, et il convainquit le sénat en train de délibérer qu'il ne restait plus aucun espoir, si ce n'est en demandant la paix »¹³⁹.

133) *Orose*, IV, 18, 17–20.

134) Pour plus de détails sur le retour d'Hannibal en Afrique, la fin de la seconde guerre punique, et la paix conclue, Cf. *Tite-Live*, XXX, 27–45. On en souligne que les informations d'Orose furent plus concises que celle de Tit-Live.

135) Leptis Magna ou Lepcis Magna (*LPQY* en punique), une des villes importantes de Carthage. Sous Dioclétien, en 303, lors de la partition de l'Afrique proconsulaire, elle devient la capitale de la nouvelle province, la Tripolitaine. Ses ruines sont situées près de la ville actuelle de Khoms, à environ 120 km à l'est de Tripoli, sur l'embouchure de l'oued Lebda en Libye actuelle.

136) *Orose*, IV, 19, 2; pour plus de détails concernant la rencontre d'Hannibal et de Scipion, le discours d'Hannibal et la réponse de Scipion: *Tite-Live*, XXX, 29-31.

137) La bataille de Zama: Yves PERRIN – Thomas BAUZOU, *De la cité à l'Empire: Histoire de Rome*, p.77; Dexter HOYOS, *Mastering the West: Rome and Carthage at War*, pp. 214–219.

138) En arabe Sousa (sousse), ville de Tunisie, à 150 Km de Carthage au sud-est de Carthage, la ville aurait été une fondation phénicienne de Tyr. Elle fut l'un des principaux comptoirs puniques comme en témoignent Les stèles de son tophet, dédiées à Ba'al Hammon. Cf. S. LANCEL, E.LIPINSKY, Hadrumète, *DCCP*, pp. 203–204.

139) *Orose*, IV, 19, 3–4.

d'intervalle, au début de 211 av. J-C. A vingt-quatre ans Scipion reçut l'impérium proconsulaire en Espagne, se proposant principalement de venger son père et son oncle, il traversa les Pyrénées, il prit en premier assaut Carthagène¹²⁶ où se trouvaient une grande force punique ainsi que des grandes richesses d'argent et d'or. Il envoya à Rome Magon, le frère d'Hannibal, qui avait été fait prisonnier¹²⁷. Sur ce point, il s'agit d'une fausse identification, Magon était une personne autre que le frère d'Hannibal, celui qui avait écrasé les frères Scipions en Espagne.

Le consul Lévinus, revenant de Macédoine, prit d'assaut Agrigente, une ville de Sicile, et força Hannon à s'échapper vers Carthage¹²⁸, reçut la reddition de quarante cités et prit d'assaut vingt-six. En même temps, Hannibal poursuivit la guerre en Italie¹²⁹. Quant à son frère, il subit une lourde défaite en Espagne, d'après Orose: «*cinquante-huit mille hommes de l'armée d'Hasdrubal y furent tués, cinq mille quatre furent prisonniers...on jeta à Hannibal, devant le camp, la tête de son frère Hasdrubal. L'ayant vu et ayant en même temps appris le désastre des Puniques, il s'enfuit chez les Brutiens*¹³⁰, douze ans après sa venue en Italie. Après cela, pendant toute l'année, une paix issue de fracas des combats parut être intervenue entre Hannibal et les Romains, parce que le trouble des maladies était dans les camps et que les deux armées étaient travaillées par une très grave peste¹³¹».

Entre temps, Scipion vint à Rome après avoir réduit en province toute l'Espagne, des Pyrénées jusqu'à l'Océan. Il passa en Afrique¹³², tua le général punique Hannon, fils d'Hamilcar, et

126) La ville fut prise en 210 av. Yves PERRIN – Thomas BAUZOU, *De la cité à l'Empire: Histoire de Rome*, p.77.

127) Orose, IV, 18, 1.

128) Hannon était le commandant des carthaginois en Sicile, il se réfugia à Carthage en 210 av. J-C. Dexter HOYOS, *Mastering the West: Rome and Carthage at War*, p. 144.

129) Pour plus de détails, Cf. Orose, IV, 18, 2–8.

130) Les Brutiens (ou Bruttiens, ou encore Brettiniens, latin: *Bruttii* ou *Bretti*) étaient une tribu antique, de langues osque et grec ancien, issue du peuple des Lucaniens, eux-mêmes d'origine sannite. Cette tribu est à l'origine du nom de la région romaine du Bruttium, correspondant à la Calabre actuelle.

131) Orose, IV, 18, 13–16.

132) Sur l'invasion de Scipion en Afrique, on peut consulter : Dexter HOYOS, *Mastering the West: Rome and Carthage at War*, pp. 198–219.

guerres, ils combattirent en proie au désespoir, ils vainquirent en combattant. A partir de là, il est démontré à l'évidence que les temps ne se rassérénèrent pas grâce à la paix, mais que les hommes se fortifièrent dans les malheurs»¹²¹.

La dixième année après la venue d'Hannibal en Italie, sous le consulat de Cn Fulvius et de P.Sulpicius¹²², Hannibal avança à travers les territoires des Sédiniens et des Suessanes, et s'établit à Anio. Il fut arrivé en menaçant jusqu'à la porte Colline avec ses troupes en ordre de bataille. Mais quand les armées furent établies l'une en face de l'autre en vue de Rome, une grosse averse, mêlée de grêle, se déversa soudain des nuages, les formations de combat mise en désordre furent repliées dans leurs camps. Même ensuite, alors que le beau temps revenu, à nouveau un orage plus violent éclata et contraignit les armées terrifiées à se réfugier dans les tentes. « *On rapporte qu'alors Hannibal, saisi d'une crainte religieuse, a dit que, tantôt la volonté, tantôt la puissance d'être le maître de Rome ne lui avait pas été accordée* »¹²³. Tandis que Tite – Live écrit : « *Les Carthaginois attribuèrent cet événement à l'intervention divine, et l'on entendit Hannibal s'écrier « que les dieux lui refusaient tantôt la volonté, tantôt le pouvoir de prendre la ville de Rome »* »¹²⁴. On peut déduire que l'événement fut interprété religieusement chez les Puniques, et même chez Orose qui écrit : « *Que me répondent maintenant, sur ce point, les détracteurs du vrai Dieu : est-ce le courage romain ou bien la divine miséricorde qui a empêché Hannibal de s'emparer de Rome et de la détruire* », il répond : « *en effet, à propos d'un événement suffisamment certain de ce genre, j'estime que cela peut être reconnu, et non pas nié... sans aucun doute il est évident que la ville de Rome a été sauvée alors pour que la croyance de la foi future soit sauvegardée, et qu'elle est maintenant châtiée pour sa fraction incroyante, par ce même vrai Dieu qui est le christ Jésus gouvernant selon la volonté de son jugement ineffable* »¹²⁵ ».

Cependant, en Espagne, les deux Scipions furent tués par le frère d'Hasdrubal dans deux batailles à vingt-neuf jours

121) Orose, IV, 16, 21.

122) Cn Fulvius Centimalus et P.Sulpicius Galba, consuls en 211 av. J.-C.

123) Orose, IV, 17,7.

124) Tite –Live, XXVI, 11, 4.

125) Orose, IV, 17, 8–11.

*sitôt après la victoire. En témoin de sa victoire, Hannibal envoya à Carthage trois boisseaux d'anneaux d'or qu'il avait arrachés aux mains des chevaliers romains et des sénateurs tués*¹¹³.

Les Romains perdirent l'espoir dans leur république, les sénateurs pensèrent de prendre la décision d'abandonner l'Italie et de se mettre en quête d'un nouveau lieu pour s'installer, mais le tribun militaire Cornélius Scipion, « *le même qui sera connu plus tard l'africain* » les empêcha, et il les contraignit à prêter avec lui un serment de défendre Rome. Les Romains recrutèrent de nouveaux soldats pour défendre leur cité¹¹⁴, et sous le consulat de Sempronius Gracchus et de Q. Fabius Maximus¹¹⁵, l'ancien préteur Claudius Marcellus, désigné comme proconsul, bouscula « *dans un combat l'armée d'Hannibal et, le premier après tant de catastrophes pour la république, fit espérer qu'Hannibal pourrait être vaincu*¹¹⁶ ». M. Claudius Marcellus oblige Hannibal à lever le siège de Nole en 215 av. J.-C. Les grecs restèrent fidèles à Rome, résistèrent contre le carthaginois dans de nombreuses places fortes, Hannibal échoua devant Naples, Brindes et Rhegium¹¹⁷.

En Espagne, les Scipions¹¹⁸, écrasèrent le général Hasdrubal, le frère d'Hannibal, qui préparait une armée pour attaquer l'Italie. De sa part, Hannibal réalisa de nouvelles victoires en Italie¹¹⁹. A cette époque, les Romains affrontèrent trois ennemis outre la guerre contre Hannibal en Italie, l'une en Macédoine¹²⁰, la deuxième en Espagne contre Hasdrubal le frère d'Hannibal, et la troisième en Sardaigne contre le second Hasdrubal. Orose explique: « *Cependant, la force du désespoir dont ils firent preuve contre l'un ou l'autre de leurs adversaires les fit progresser vers de meilleures situations, car, dans toutes ces*

113) Orose, IV, 16, 3-5.

114) Orose, IV, 16, 6 - 9.

115) Consuls en 215 a. J.-C.

116) Orose, IV, 16, 12.

117) Yves PERRIN – Thomas BAUZOU, *De la cité à l'Empire: Histoire de Rome*, p.77.

118) Le consul en 218 fut P. Cornelius Scipio, son frère Cn. Cornelius Scipio Calvus, consul en 222 av. J.-C.

119) Pour plus de détails : Orose, IV, 16, 13-15.

120) Le roi des Macédoniens Philippe V (220-179 av. J. -C.), s'allie à Hannibal en 216 av. J.-C.

romaine fut tombée dans le piège d'Hannibal, 15000 Romains, et le consul lui – même furent tués. Orose mentionne que la rencontre de Trasimène fut « *mémorable à cause de la si grande défaite des Romains, mais surtout parce que les combattants firent preuve d'une ardeur si violente qu'ils ne se rendirent absolument pas compte d'un très fort tremblement de terre qui vint à se produire alors, si brutal que, dit – on, il renversa les villes, déplaça les montagnes, fendit les rochers et fit remonter leur cours aux fleuves* »¹⁰⁷. Orose fut appuyé complètement sur Tite – Live¹⁰⁸.

La bataille de Cannes suivit le désastre de Trasimène¹⁰⁹, elle fut livrée en 216 av. J.-C. Les consuls L.Aemilius Paulus et P.Terentius Varron¹¹⁰ conduisirent les romains¹¹¹, « *en effet, quarante- quatre mille Romains furent tués dans cette bataille; toutefois, une grande partie de l'armée d'Hannibal fut également massacrée. Cependant, dans aucune bataille avec les Puniques, les romains ne furent amenés jusqu'à ce point extrême de carnage. En effet, le consul Paul – Emile y périt, vingt anciens consuls ou préteurs furent tués; trente sénateurs, trois cent nobles, quarante mille fantassins, trois mille cinq cents cavaliers furent faits prisonniers ou tués* »¹¹². Le consul Varron s'enfuit à Venouse avec cinquante cavaliers. Sans aucun doute, ce jour aurait été le dernier pour l'état romain si Hannibal avait cherché à pénétrer dans Rome

107) Orose, IV, 15, 6.

108) « *C'était le hasard qui groupait les combattants, le courage de chacun qui lui donnait sa place aux premiers rangs ou aux derniers; et si grande fut l'ardeur, si attentive l'application au combat, que le tremblement de terre qui ruina en grande partie beaucoup de villes d'Italie, détourna des torrents de leur course, fit remonter la mer dans les fleuves et abattit des montagnes en d'énormes éboulements, aucun des combattants ne s'en aperçut* », Tite – Live, XXII, 5, 8.

109) Pour plus de détails sur la victoire punique de Trasimène : Orose, IV, 15, 4–6; de Cannes : Orose, IV, 15, 7; 16, 1–5; Tite – Live, XXII, 1–61; Polybe, III, 84–118.

110) Aemilius Paulus et P.Terentius Varro, consuls en 216 av. J.-C. Orose situe leur consulat en 214 av. J.C. une date plus basse de deux ans.

111) Pour plus de détails sur la Bataille du Cannes : Dexter HOYOS, *Mastering the West: Rome and Carthage at War*, pp. 118–125.

112) D'après des récentes références, 45000 Romains, dont le consul L. Aemilius Paullus, y trouvent la mort, 20000 prisonniers. Yves PERRIN – Thomas BAUZOU, *De la cité à l'Empire: Histoire de Rome*, p.77.

comptait cent mille fantassins et vingt mille cavaliers»⁹⁸. Le consul Scipion se porta le premier à la rencontre d'Hannibal, il subit une grande défaite lors de la bataille de Tessin (décembre 218 av. J.-C.)⁹⁹, et fut délivré de la mort par son fils Scipion qui a été surnommé l'Africain. Selon Orose « *Presque toute l'armée romaine fut massacrée là* »¹⁰⁰.

Orose fut le seul qui ait mentionné une bataille près de la Trébie¹⁰¹, remportée par Hannibal. Cette guerre s'engagea en décembre 218, le consul Sempronius subit une défaite, son armée perdue, il s'échappa presque seul. Quant à Hannibal, il fut blessé. Ensuite, le général Carthaginois qui passait en Etrurie au début du printemps, saisit par une tourmente au sommet de l'Apennin, fut paralysé par le froid. D'autre part, le frère du consul Scipion, livra des batailles en Espagne, et remporta une victoire contre « *le général punique Magon et le fit prisonnier* »¹⁰². Dans ce récit, Orose commit une erreur, le général cité fut Hannon, et selon Tite – Live il subit une lourde défaite, six mille hommes furent tués et deux mille prisonniers dont le général lui-même¹⁰³.

Orose parla ensuite des victoires d'Hannibal en Italie, mais il mentionna qu'il rencontra des difficultés, et « *à cause du froid et de la fatigue des veilles, il perdit un œil qui était déjà malade depuis quelque temps* »¹⁰⁴. Quand il s'approcha du camp de consul Flaminius¹⁰⁵, il le provoqua au combat, en dévastant les environs. Cette bataille fut livrée au lac de Trasimène¹⁰⁶, l'armée

98) Orose, IV, 14, 5.

99) Yves PERRIN – Thomas BAUZOU, *De la cité à l'Empire: Histoire de Rome*, p.76.

100) Orose, IV, 14, 6; pour plus de détails sur cette guerre: Polybe, III, 64–67.

101) La Trébie se situe à l'ouest de Plaisance en Italie du nord.

102) Orose, IV, 14, 9.

103) Tite –Live, XXI, 60, 5–8; à noter que les « *Hispani* » sont nommés très souvent par Tite-Live, que ce soit sous cette forme ou celle, en apparence plus personnalisée, en réalité révélatrice des divisions réelles, supposées ou désirées de la péninsule, du nom de ses différents peuples». Agnès PELLETIER, « Les hispani et l'hispania de Tite Live », *Mélanges de la Casa de Velázquez*, tome 22, 1986. pp. 5–25.

104) Orose, IV, 15, 3.

105) C. Flaminius, consul en 217 av. J.-C.

106) Bataille du lac de Trasimène eut lieu en 217 av. pour plus de détails: Dexter HOYOS, *Mastering the West: Rome and Carthage at War*, pp. 110–118.

La deuxième guerre Punique

Avant d'étudier l'histoire de la deuxième guerre punique qui occupe les chapitres 14 - 19, Orose nous rappela dans le treizième chapitre de son quatrième livre, quelques événements marquant de l'histoire de Rome entre 229 av. J.-C. et le début de la deuxième guerre punique. Parmi ces événements il écrit: « *en 517 après la fondation de Rome, le général carthaginois Hamilcar fut tué au combat par les Espagnols, alors qu'il préparait en secret une autre guerre contre les Romains* »⁹². A partir de 237, Carthage se constitue un empire en Espagne⁹³, une nouvelle cité fut fondée: Carthago Nova (Carthagène). Les Barcides, qui y possèdent d'immenses propriétés, dominent la vie politique; à la mort d'Hamilcar, son gendre fut son successeur. En 221, après l'assassinat de Hasdrubal, Hannibal fils d'Hamilcar, prit en main le pouvoir⁹⁴, et c'est ainsi qu'émerge les signes de la deuxième guerre punique (218 – 201 av. J. – C.).

La guerre, d'après Orose, commence en 534 av. J-C⁹⁵. Après la fondation de Rome, le général Hannibal détruisit au bout de huit mois, Sagonte, une ville d'Espagne préromaine⁹⁶. Hannibal qui avait juré à son père de porter la haine des Romains, traversa les Pyrénées, puis ouvrit par le glaive un chemin à travers les peuples gaulois, et fut parvenu aux Alpes⁹⁷. « *Son armée*

92) Orose, IV, 13, 1.

93) Avant cette date, les relations entre les carthaginois et les communautés locales n'ont été pas établi sur une domination punique mais plutôt une alliance. C. G. WAGNER, «Carthaginians in Spain», in «E. LIPINSKI & H. DEVIJVER, Punic wars, Peeters Press – Louvain, 1989, pp. 155–156.

94) Yves PERRIN – Thomas BAUZOU, *De la cité à l'Empire: Histoire de Rome*, p. 75; Dexter HOYOS, *Mastering the West: Rome and Carthage at War*, pp. 85–86.

95) La guerre déclencha en 219, lorsqu'Hannibal prend Sagonte. Ni Carthage, ni Rome appuyée par Marseille, ne cherchent l'apaisement, et toutes deux se lancent dans la guerre. Yves PERRIN – Thomas BAUZOU, *De la cité à l'Empire: Histoire de Rome*, p. 76.

96) Orose, IV, 14, 1.

97) Sur la question de l'influence de ravitaillement sur la stratégie d'Hannibal, on peut consulter: Pierre-Emmanuel KLINGBEIL, La marche d'Hannibal: ravitaillement et stratégie, In: *Antiquités africaines*, 36, 2000. pp. 15–38.

Les consuls Paul Emile et Fulvius Nobilior⁸⁴ reçurent l'ordre de passer en Afrique, ils remportèrent une victoire, et établirent leur camp près de Clypéa. Mais en revenant en Italie, la flotte Romaine fut détruite dans un horrible naufrage⁸⁵.

Après cette information, Orose fut le seul historien qui mentionna qu'Hamilcar soumette de façon sanguinaire Numidie et Maurétanie⁸⁶. Puis il poursuivit, en détails, les événements de la première guerre punique, en insistant sur l'énormité des pertes Carthaginoises⁸⁷ qui demandèrent la paix, aux conditions imposées par les Romains sous le consul Lutatius⁸⁸, après vingt – trois ans après le commencement de la première guerre punique. Sur la base de cette paix, les carthaginois se retirèrent de Sicile et de Sardaigne et payèrent une indemnité pour vingt ans⁸⁹. La Sicile devint la première province romaine, Syracuse demeura un royaume indépendant et allié⁹⁰.

Après avoir indiqué les clauses de la paix qui maintinrent la victoire de Rome à la fin de la première guerre punique, Orose évoqua les pertes en vies humaines à Rome et à Carthage, au cours de cette longue guerre⁹¹.

84) M.Aemilius Paulus et Ser. Fulvius Paetinus Nobilior, consuls en 255 av. J.-C.

85) Selon Orose sur trois cents navires, deux cent furent détruits. *Orose, IV, 9, 5–8*.

86) Pour plus de détails sur cette répression : *Orose, IV, 9, 9*.

87) Orose évoque l'énormité des pertes carthaginoises, par contre il estime que l'armée romaine ne subit que des dégâts limités : *Orose, IV, 9, 10 – 15; 10, 1–8*.

88) C. Lutatius Catulus, le vainqueur des îles Egates, et son frère cadet Q. Lutatius Catulus Cerco, consul en 241 av. J.-C., concluent ensemble avec les Carthaginois la paix qui met fin à la première guerre punique. *Orose, T II, p. 244*.

89) *Orose, IV, 11, 1–3* ; sur la fin de la guerre et le traité de paix, on peut consulter : *Polybe, I, 62–63*.

90) Yves PERRIN – Thomas BAUZOU, *De la cité à l'Empire: Histoire de Rome*, p.74 ; Dexter HOYOS, *Mastering the West: Rome and Carthage at War*, pp. 66–67.

91) *Orose, IV, 11, 4–9*.

lieu la capitulation de la ville de Clypéa, puis ils se dirigèrent vers Carthage, dévastèrent trois cents châteaux et davantage. Le consul Manlius, quitta l'Afrique avec une flotte victorieuse, ramena à Rome un immense butin de vingt-sept prisonniers⁷⁸.

Chargé de la guerre carthaginoise, Regulus rencontra quelques événements insolites⁷⁹. Puis il fit une guerre contre trois généraux Carthaginois⁸⁰ : Carthalo, Hasdrubal et Hamilcar⁸¹ qui avait été appelé de Sicile. Les Carthaginois subirent une lourde défaite, « *dix – sept mille sont massacrés, cinq mille faits prisonniers, dix-huit éléphants enlevés, quatre-vingt-deux places fortes firent leur soumission aux Romains* »⁸².

Après cette défaite, les Carthaginois refusèrent une paix avec des conditions dures et intolérables. Ils estimèrent recruter des troupes auxiliaires, non pas seulement d'Espagnols et de Gaulois, mais aussi des Grecs. Ils confièrent le commandement des opérations à Xanthippe, roi des Lacédémoniens, qu'ils avaient fait venir avec des troupes auxiliaires. Xanthippe engagea la guerre contre les Romains qui subirent une immense défaite : « *en effet trente mille soldats romains furent alors anéantis dans cette rencontre. Regulus, ce fameux noble général, fut fait prisonnier avec cinq cent hommes et, jeté dans les fers, il offrit aux Carthaginois un triomphe fameux, la dixième année précisément de la guerre punique* »⁸³. Après sa victoire en 255 av. J.-C., Xanthippe s'en alla immédiatement d'Afrique en Grèce.

78) Orose, IV, 8, 6–9.

79) Orose, IV, 8, 10–15.

80) Dexter HOYOS, *Mastering the West: Rome and Carthage at War*, p. 60.

81) Hamilcar est le père d'Hannibal, surnommé Barca, ce qui veut dire « l'éclair », apparaît en 247, comme commandant de la flotte et de l'armée carthaginoise en Sicile, il reçut le soutien du parti populaire et de son gendre Hasdrubal, pour passer avec son armée en Espagne, afin de créer une base solide pour la revanche contre Rome, il fait de ses conquêtes un véritable royaume, dépendant théoriquement de Carthage, mais soumis en fait à son pouvoir absolu. En 231 il établit sa capitale en a Akra Leuke (Alicante). Il fut mort en Espagne en 239 av. G-CH PICARD, Hamilcar, *DCPP*, p. 205 ; Dexter HOYOS, *Mastering the West: Rome and Carthage at War*, pp. 80–81.

82) Orose, IV, 8, 16.

83) Orose, IV, 9, 1–4.

Sous le consulat de C. Aquilius Florus et L. Cornélius Scipio⁷⁰, les Carthaginois confièrent le commandement de la guerre navale à Hannon, choisi en remplacement d'Hannibal pour défendre les Sardes et les Corses. La bataille eut lieu en Aléria⁷¹, le chef carthaginois subit une défaite et fut tué. «*La même année, trois mille esclaves et quatre mille marins du contingent des citées alliés complotèrent la perte de la ville de Rome et, si une dénonciation venue à point nommé n'avait devancé le projet, la cité dépourvue de garnison aurait péri du fait de cette troupe servile*»⁷².

L'année qui suivit celle – là, le consul Calatinus⁷³ se dirigea vers Camarina, une ville de Sicile, et conduisit une armée dans un défilé que les troupes puniques venaient de fortifier. Alors qu'il n'avait aucune chance de résister, il fut sauvé grâce à une opération de Calpurnius Flamma qui conduisit une troupe de trois cent guerriers, et il put attirer sur lui l'armée punique, jusqu'à ce que l'armée romaine franchît le défilé, où l'ennemi relâcha sa pression. Mais les trois cents soldats furent tous massacrés, seul Calpurnius s'échappa. Hannibal l'ancien, mis une seconde fois par les carthaginois à la tête de la flotte, rencontra les Romains devant l'île de Plumbaria, au nord-ouest de la Sardaigne⁷⁴, mais il fut vaincu, péri et lapidé par son armée au cours d'une mutinerie. Le consul Atilius⁷⁵, ravagea Lipari et Melita, des îles de Sicile⁷⁶.

Les consuls ayant reçu l'ordre de transférer la guerre en Afrique, se dirigèrent vers Sicile avec trois cent navires, ils rencontrèrent le général en chef Punique Hamilcar⁷⁷ et le commandant de la flotte Hannon. Les Carthaginois prirent la fuite et perdirent soixante-quatre navires. Cette guerre eut lieu en 256 av.-J.C. Les consuls passèrent en Afrique, et reçurent au premier

70) C. Aquilius Florus et L. Cornélius Scipio, consuls en 259 av.-J.-C.

71) Orose ne cite pas le nom de la bataille.

72) Orose, IV, 7, 12.

73) A. Atilius Calatinus, consul en 258 av.-J.-C.

74) Orose ne précise le lieu de la bataille,

75) C. Atilius Regulus, consul en 257 av.-J.-C.

76) Orose, IV, 8, 1–4.

77) Hamilcar stratège en Sicile et en Afrique, de 261 à 255 au cours de la première guerre punique. E. LIPINSKY, Hamilcar, *DCPP*, p. 205.

Hiéron devint l'allié de Rome et resta jusqu'à sa mort en 205 av. J. C. Les consuls d'après Orose entourèrent Agrigente, cité de Sicile, et la garnison de Puniques qui s'y trouvait. Le général en chef puniques était *Hannibal l'ancien*⁶⁴ qui, bloqué par cet encerclement, fut réduit à une extrême pénurie. *Hannon*⁶⁵, le nouveau général en chef des Carthaginois, survit à l'improviste avec mille cinq cents cavaliers, trente mille fantassins et même trente éléphants et il arriva à retarder quelque peu la prise de la cité. Les Puniques furent vaincus, onze éléphants capturés, tous les Agrigentins vendus comme prisonniers de guerre, Hannibal l'ancien s'enfuit à l'aventure⁶⁶.

Sous le consulat de Cn Cornélius Asina et de C. Duilus⁶⁷, Hannibal l'ancien ravagea le littoral d'Italie avec une flotte armée de soixante-dix navires. Par contre, les Romains ordonnèrent de construire et d'armer une flotte. Dans les soixante jours qui suivent, une flotte de cent trente navires fut mise à flot. Le consul Cornélius Asina, gagna l'île de Lipari avec seize navires. « *Là, mandé par Hannibal sous contexte de pourparlers de paix, il fut fait prisonnier par la fourberie Punique et tué en captivité*⁶⁸ ». Quand l'autre consul Duilus entendit cela, il alla contre Hannibal l'ancien avec trente navires. Un combat naval s'engagea. Une fois le navire sur lequel naviguait Hannibal perdu, celui – ci perdu. D'après Orose: « *on rapporte que trente – et – un de ses navires furent pris, treize coulés, trois mille hommes furent tués, sept mille faits prisonniers* »⁶⁹.

64) Le nom Haaniba'l est répandu à Carthage et dans le monde punique. Hannibal fils Giscon, commandant de la place forte d'Agrigente en 264 et amiral de la flotte punique au début de la première guerre punique. Il fut vaincu à plusieurs reprises par les Romains, et fut tué par ses hommes à Sulcis en 258. E. LIPINSKY, Hannibal, *DCPP*, p. 206.

65) Hannon fils d'Hannibal, commandait en 264-262 et 258-256 les forces carthagoises en Sicile et en Sardaigne, une série de défaites fut liées à son nom; après 256 on ne lui confia plus de commandement militaire. W.HUB, Hanon, *DCPP*, p. 208.

66) Orose, *IV*, 7, 1–6.

67) Cn Cornélius Scipio Asina et C. Duilus, consuls en 260 av. J.-C.

68) Orose, *IV*, 7, 9. Cornelius fut à nouveau consul en 254 av. J.C. cette erreur s'agit peut-être d'une faute de copiste. Pour plus de détail cf. la note 6 au chapitre 7 du livre *IV* d'Orose.

69) Orose, *IV*, 7, 10.

Orose était au courant de la situation politique en Méditerranée. Il relata l'histoire de Rome durant le quatrième siècle et mentionna un traité de paix conclu avec Carthage, il écrivit: « *En 402 après la fondation de Rome que les ambassadeurs furent envoyés de Carthage à Rome et conclurent un traité. Le témoignage des histoires, aussi bien que l'infamie frappant les lieux et l'exécration des jours où cela s'est passé attestent quelle grêle de maux allait suivre en raison de l'entrée des Carthaginois en Italie, et quelles ténèbres sans fin de malheurs ininterrompus* »⁵⁸.

Il commença le récit de la première guerre Punique en se basant sur Tite Live sans aucune mention, mais il ne s'appuie pas sur Polybe⁵⁹ (vers 208 – 126 av. J. –C.) qui est considéré comme une source irremplaçable⁶⁰. Orose écrivit qu'en 483 après la fondation de Rome, sous le consulat d'Appius Claudius et de Q. Fabius⁶¹, les Romains envoyèrent aux Mamertins⁶² qui tenaient Messine, une cité de Sicile, des renforts contre Hiéron⁶³, roi de Syracuse, et ses alliés les Puniques, ainsi que l'armée sous le commandement du consul Appius Claudius. Celui – ci l'emporta sur les Syracusains et les Puniques, et imposa une amende de deux cents talents d'argent. En conséquence,

PUF, 1999, p. 83; J-P. MARTIN – A. CHAUVOT – M. CEBEILLAC-GERVASONI, *Histoire romaine*, 3ème édition, Armand Colin, 2013, p. 99; Michael FRONDA, *Between Rome and Carthage: Southern Italy during the Second Punic War*, McGill University, Cambridge University Press, New York, 2010, pp. 5–14.

58) Orose, III, 7, 1–3; Selon Tite-Live le traité fut conclu en 406 *après la fondation de Rome* (348av.J.-C), mais on ne sait pas s'il fut le premier.

59) On peut consulter la première guerre punique chez Polybe: *Polybe, I*, 5–64.

60) MARTIN – A. CHAUVOT – M. CEBEILLAC-GERVASONI, *Histoire romaine*, p. 99.

61) Appius Claudius Caudex et M.Fulvius Flaccus qui fut appelé par Orose Q.Fabius, furent consuls en 264 av. J.-C. la date d'Orose est plus haute de sept ans.

62) Les nouveaux propriétaires de Messine se sont appelés Mamertines au nom de leur dieu de la guerre campanien Mamers (Mars aux Romains), et ont été à la hauteur de ce nom en attaquant et en pillant leurs voisins, puis en s'alignant sur Carthage contre Pyrrhus. Dexter HOYOS, *Mastering the West: Rome and Carthage at War*, p. 29.

63) Hiéron fut proclamé roi en 264 av. J. C.

Après la mort d'Agathocle, les Carthaginois ravagèrent la Sicile, mais rencontrèrent Pyrrhos le roi d'Épire qui fut appelé d'Italie. « *En dernier lieu, ils se tournèrent vers les guerres contre les Romains* »⁵³. Pyrrhos (319/18–272) arriva en Sicile en 278 av. J.-C. et s'empara de presque toute l'île, à l'exception de Lilybée restée aux mains des Carthaginois et de Messine occupée par les Marmetins⁵⁴. Cet échec l'amena à se retirer de l'île en 275.

La première guerre Punique

En 270 av. J.-C., Rome entra dans le concert des puissances méditerranéennes, le bassin oriental était dominé par des monarchies grecques : Antigonides en Macédoine et Grèce, Séleucides en Syrie et Phénicie, Attalides à Pergame, Lagides en Égypte. En Occident, Rome et Carthage, furent dès le début du III^e siècle av. J.-C. les principales puissances. Elles furent toutes deux des républiques comme la plupart des autres États occidentaux⁵⁵. Dans ce contexte, s'éclata la première guerre punique (264 – 241 av. J.-C.)⁵⁶, connue grâce à plusieurs sources⁵⁷.

Carthage's Other Wars: Carthaginian Warfare Outside the 'Punic Wars' Against Rome, pp. 115–147.

53) Pour plus de détails : Orose, *IV*, 6, 33.

54) Lilybée, aujourd'hui Marsala, une ville punique fut établie dans un cap facile à défendre, se présentait comme une base d'une efficacité stratégique pour la présence carthaginoise en Sicile occidentale. Les armées romaines ne purent y rentrer qu'après la fin de la première guerre romano-carthaginoise en 241, en vertu duquel la Sicile devint sous la domination romaine. M'hamed FANTAR, *Carthage – Approche d'une civilisation, II tomes*, Alif, Tunis, 1993, Tome 2, p.45-46.

55) Pour plus de détails sur ces deux Républiques et leurs influences dans le bassin occidental de la Méditerranée : Dexter HOYOS, *Mastering the West: Rome and Carthage at War*, Oxford University Press, Madison Avenue, New York, 2015, pp. 7–20.

56) On peut distinguer quatre étapes dans la première guerre punique, Yves PERRIN – Thomas BAUZOU, *De la cité à l'Empire: Histoire de Rome*, 2^e édition, ellipses, 2004, p.74 ; Dexter HOYOS, *Mastering the West: Rome and Carthage at War*, pp. 29–94.

57) Pour plus d'informations sur les sources et les oeuvres qui ont étudié les guerres puniques, problèmes et méthodologies, on peut consulter : M. Le GLAY – J.-L. VOISIN – Y. Le BOHEC, *Histoire romaine*, 3^e édition,

En se basant complètement sur Justin⁴⁸, Orose évoqua la situation à Carthage après la chute de Tyr « *sa fondatrice originelle* » par Alexandre le Grand. Craignant qu'il passe en Afrique, les Carthaginois envoient un certain « *Hamilcar, surnommé Rhodanus, un homme remarquable par son aisance à parler et son habileté, pour épier les mouvements d'Alexandre. Hamilcar, accueilli par Parménion comme un transfuge, puis admis, dans l'armée du roi, informait de tous ses concitoyens, au moyen de tablettes inscrites et ensuite enduites de cire. Quand il revint à Carthage, une fois Alexandre mort, les Carthaginois l'exécutèrent, sous prétexte qu'il avait vendu la ville au roi non tant à cause de leur esprit ingrat qu'en raison aussi d'une haine cruelle*⁴⁹ ».

En même temps, les guerres en Sicile furent continuelles, les Carthaginois mettent le siège autour de Syracuse, la ville la plus fleurissante de Sicile. Agathocle, le roi de la ville, savait qu'il n'était ni de même force au combat, ni à même de soutenir le siège avec suffisamment de soldats, décida selon un plan combiné d'avance et mieux dissimulé de passer en Afrique avec une armée. Il apporta une ruine totale partout où il se dirigea, incendia les domaines et les châteaux. Il trouva sur son chemin un certain *Hannon* avec trente mille Puniques⁵⁰ et le tua avec deux mille des siens, pour sa part il ne perdit que deux hommes. Du fait de ce combat, il prit l'assaut des villes et des châteaux, imposa d'immenses butins, massacra plusieurs milliers d'ennemis. En même temps, l'armée des Africains fut détruite en Sicile avec son général⁵¹. Orose saute des événements, il ne mentionne pas le sort d'Agathocle en Afrique, sachant que l'aventure d'Agathocle n'atteint pas ses objectifs, il fut assiégé dans Tunis par les Carthaginois, mais s'enfuit par mer et les chefs de l'armée grecque conclurent un accord avec Carthage, suivi en 306 de la signature d'un traité de paix entre Agathocle lui-même et les Carthaginois⁵².

48) *Justin, XXI, VI, 1-7.*

49) *Orose, IV, 6, 21-22.*

50) *Justin parla de trente mille paysans (XXII, 6, 5).*

51) *Pour plus de détails sur la défaite des carthaginois contre Agathocle: Orose, IV, 6, 24-32.*

52) *Pour plus de détails sur les guerres de Carthage contre Syracuse et son tyran Agathocle (361-289 av. J-C.) depuis 316-15 av. J-C: Dexter HOYOS,*

sacerdotaux, parce qu'il était venu au-devant de lui revêtu de la pourpre comme pour l'insulter. Quelques jours après, il prit la ville elle-même; et comme, après avoir fait tuer un bon nombre de sénateurs, il exerçait une sanglante domination, il fut tué. Cela se passa au temps de Cyrus, roi de Perses». Après cela, le roi des Carthaginois, Himilcon, perdit soudain son armée par suite d'une horrible pestilence tandis qu'il faisait la guerre en Sicile»⁴³. Des problèmes éclatèrent à Carthage, la ville fut bouleversée tout comme si elle était prise, on entendait les cris de ceux qui pleuraient, et les lamentations des mères infortunées. Au milieu de cela, le général carthaginois revient à son pays, et à sa vue il voit le malheur, il rentre à sa maison et met fin à sa vie⁴⁴. Sa trahison envers les alliés africains, d'après Diodore, provoqua une révolte à laquelle auraient participé 200,000 insurgés⁴⁵.

« Hannon, un carthaginois qui l'emportait par ses richesses privées sur les ressources de l'État, se pénétra du désir de s'emparer du pouvoir», D'après Orose, il fut un homme mauvais, tenta de soulever les esclaves dans l'intention de s'emparer avec eux de la ville à l'improviste. Mais son projet ne réalise aucun bénéfice; il fut arrêté, son corps déchiré et crucifié sous les yeux du peuple, même ses fils et ses parents furent livrés au supplice⁴⁶. Cette tentative de révolution d'Hannon est historique, elle date de peu après 345 av. J.C⁴⁷.



Hannon

43) Orose, IV, 6, 8–10.

44) Orose, IV, 6, 11–15; Cf. Justin, XIX, VI, 1–12; Diodore, XIV, 76, 3–4.

45) Diodore, XIV, 77.

46) Pour plus de détails: Orose, IV, 6, 16–20.

47) Pour plus de détails sur Hannon: Dexter HOYOS, *Carthage's Other Wars: Carthaginian Warfare Outside the 'Punic Wars' Against Rome*, p. 93.

Les guerres des Carthaginois en Sicile

Orose évoqua brièvement les guerres des Carthaginois en Sicile, sachant que les récits qui ont évoqué ces guerres proviennent presque entièrement d'auteurs grecs et romains, non pas parce que les Carthaginois n'ont pas tenu de registres, mais parce que les sources puniques ne sont pas parvenus à nous³⁸.

Après avoir parlé de la fondation de Carthage, et critiqué ses rites, Orose établit un lien entre la colère divine face aux sacrifices humaines à Carthage en écrivant « *que les carthaginois avaient longtemps combattu de façon malheureuse en Sicile, les dieux s'étant détournés d'eux à cause de sacrifices de ce genre, comme l'admettent Trogue Pompée et Justin, – mais, selon nous, c'est évident, Dieu étant irrité contre eux à cause de leur présomption et de leur impiété – ils furent vaincus une seconde fois de façon plus malheureuse après avoir porté la guerre en Sardaigne. A cause de cela, ils ordonnèrent l'exil de leur général Mazeus et des quelques soldats qui en avaient réchappé* »³⁹.

Le général Mazeus fut appelé Malchus selon Justin⁴⁰. Il fut le premier individu connu dans l'histoire de Carthage après Elissa/Dido et son entourage, sachant que son existence réelle est débattue. Comme d'autres chefs carthaginois, il aura été membre de l'aristocratie. Son fils était prêtre de Melqart, l'un des principaux dieux de Carthage, étroitement lié à la ville-mère de Tyr⁴¹.

Orose écrivit que Mazeus, « *le roi des exilés crucifia son fils Cathalon, prêtre d'Hercule*⁴², *sous les yeux de la patrie, tel qu'il était, avec ses vêtements de pourpre et de ses insignes*

38) Pour plus de détails sur la questions des sources, on peut consulter: Dexter HOYOS, *Carthage's Other Wars: Carthaginian Warfare Outside the 'Punic Wars' Against Rome*, Pen & Sword Books LtdYorkshire – Philadelphia, 2019, pp. 1–6.

39) Orose, IV, 6, 6–7.

40) Il est clair qu'Orose s'est appuyé sur Justin dans ce récit. Justin, XVIII, VII, 1–19.

41) Pour plus de détails sur ce roi, on peut consulter: Dexter HOYOS, *Carthage's Other Wars: Carthaginian Warfare Outside the 'Punic Wars' Against Rome*, pp. 33–39.

42) C'est-à-dire Melqart, assimilé par les grecques et les romains à Hercule.

Ces rites mentionnés dans les sources classiques furent l'écho du « *tophet* ». Le terme n'est jamais utilisé dans la documentation phénico-punique, mais dans l'ancien testament. Il désigne un endroit proche de Jérusalem où des adultes firent passer par le feu leurs propres enfants³³. Ce rite fut désigné par le terme *mlk*, lui-même attesté dans la documentation épigraphique punique pour évoquer un type de sacrifice sanglant. Le *tophet* fut une enceinte à ciel ouvert, consacré à l'ensevelissement d'urnes cinéraires, fréquemment signalées par des ex-voto à Baal Hammon et/ou Tanit, et contenant des rares bijoux et amulettes, et les restes brûlés de très jeunes enfants. D'après les sources classiques, ces centres, répartis sur les sites phénico-puniques en Méditerranée occidentale, furent considérés comme le théâtre de sacrifices d'enfants offerts aux dieux par les habitants des cités menacées. Ces rites se sont répandus en Méditerranée centrale à partir de la fin du VIII^e siècle avant notre ère jusqu'au 2^e siècle³⁴. Ce point de vue envers les Phéniciens ne doit pas masquer la tendance idéologique des auteurs classiques à noircir l'histoire des Phéniciens et des Carthaginois, les adversaires historiques des Grecs et des Romains³⁵. D'après des études récentes, ces sites constituaient des sanctuaires funéraires et non pas sacrificiels, où les enfants morts naturellement étaient voués aux dieux³⁶. Le Tophet était un lieu qui réunissait des personnes d'origines différentes dans un contexte rituel, plutôt qu'un groupe ethnique ou ethnoculturel³⁷.

33) Pour plus de détails sur ce rite à Jérusalem: Francesca STAVRAKOPOULOU, «The Jerusalem Tophet. Ideological Dispute and Religious Transformation», *The Tophet in the Phoenician Mediterranean*, SEL, pp. 137–158.

34) Paolo XELLA, «Introduction: Tophet as a Historical Problem», *The Tophet in the Phoenician Mediterranean*, SEL, p. III.

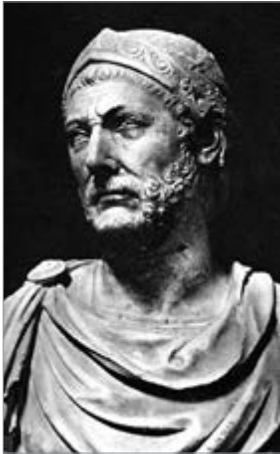
35) Corinne BONNET- Paolo XELLA, IN: KRINGS V. (éd.), *La civilisation phénicienne et punique: manuel de recherche*, p. 331–332.

36) Josephine C. Quin, «*Tophets in the 'Punic World'*», *The Tophet in the Phoenician Mediterranean*, SEL, p. 31; H. BENICHO-SAFAR, «Tophet», *DA*, p. 2208.

37) Josephine C. Quin, «*Tophets in the 'Punic World'*», *The Tophet in the Phoenician Mediterranean*, SEL, p. 29.

Ce texte fut emprunté à Justin, ce dernier évoqua l'histoire des carthaginois, il laissa quelques détails sur leur origine, reprit l'histoire des Tyriens « *issus de Phéniciens* », et relata la légende d'Elissa qui fonda Carthage²⁹.

Ce point de vue à l'égard des Phéniciens et des Carthaginois fut courant dans les sources classiques. Quinte – Curce (Ier siècle apr. J.-C.) accusa les Tyriens d'avoir sacrifié un enfant



Hannibal



Elissa fondatrice de Carthage

lors du siège de leur ville par Alexandre, et estima que ce rite fut déplacé à Carthage par les pères fondateurs³⁰. Silius Italicus (vers 27 – 102 apr. J.-C.) écrivit qu'une délégation de Carthage demanda d'Hannibal d'offrir son fils comme offrande au dieu après sa victoire contre le consul romain Varron, et considéra que ce rite fut connu dès le temps des Phéniciens, où les Phéniciens brûlaient les petits enfants pour obtenir la satisfaction des dieux, mais Hannibal demanda de ne pas tuer son fils jurant la victoire pour sa patrie et ses dieux³¹. Justin de son côté mentionna de telles pratiques à Carthage³².

29) Justin écrivit: Elissa fonda Carthage en « *soixante – douze ans avant Rome, cette ville s'illustra par sa vaillance guerrière, mais à l'intérieur elle fut agitée par toute sorte de dimension. Comme, entre autres maux, les habitants souffraient aussi de la peste, ils offrirent aux dieux, pour en obtenir la guérison, des sacrifices sanglants et criminels: ils immolèrent des hommes comme victimes et, sans pitié pour un âge qui provoque même la pitié chez les ennemis, ils sacrifièrent des enfants près des autels, prétendant apaiser les dieux par le sang de ceux pour la vie desquels on les implore le plus instamment* ». Justin, XVIII, VI, 9 – 12.

30) QUINTE – CURCE, IV, 3, 23.

31) Silius Italicus, IV, 763 – 829.

32) Justin, XVIII, VI, 10 – 12.

Orose évoqua la prise de la Phénicie par Pompée. Il écrivit que l'empereur romain entra en guerre en Coelé Syrie et en Phénicie en 689 après la fondation de Rome sous le consulat de M. Tullius Cicéron et de C. Antonius²⁵. Il soumit d'abord les Itruréens et les Arabes et prit leur ville Petra; il envoya une armée contre les juifs, s'empara de Jérusalem, et ordonna de renverser ses murailles après avoir fait exécuter un certain nombre de princes juifs. D'après Orose, Pompée lui-même raconta « *devant l'assemblée qu'il avait fait cette guerre d'Orient contre vingt-deux rois* »²⁶. Mais il ne fit aucune mention des villes phéniciennes, et sur ce point s'arrêta l'histoire de la Phénicie chez lui.

3 – Le début de l'histoire à Carthage

En évoquant les événements et les malheurs que Rome subit en 481²⁷, Orose parla des guerres puniques, mais consacra une brève histoire de la ville de Carthage, fondée par « *Hélissa, soixante-douze ans avant la ville de Rome, de ses désastres et de ses maux intérieurs selon ce qu'exposent Trogue Pompée et Justin* ». Puis il écrivit que les carthaginois avaient toujours entre eux une discorde interne, et ils ne comptèrent jamais aucune période de prospérité à l'étranger. Pour cela, ils souffrirent de leurs propres maux, entre autres « *ils immolaient comme victimes des hommes et ils poussaient vers les autels des enfants, d'un âge impubère qui provoquerait la pitié même d'ennemis. A propos de ce genre de sacrifices, mieux vaut dire de sacrilèges, je ne trouve pas ce qu'il faut principalement discuter: si en effet, quelques démons osèrent prescrire des rites de cette nature, pour racheter la mort des hommes, il était donné à comprendre aux carthaginois qu'ils étaient eux-mêmes embauchés comme artisans et auxiliaires de la peste, afin de tuer eux-mêmes ceux dont celle-ci ne s'était pas emparée. Car la règle est d'offrir des victimes saines et intactes, si bien qu'ils n'apaisaient pas les maladies mais les devançaient* »²⁸.

25) M. Tullius Cicéron et de C. Antonius, consuls en 691 après la fondation de Rome (63 av. J.-C.). La date d'Orose est haute de deux ans.

26) Orose, VI, 6, 1–4.

27) Vers 266 av. J.C. (Orose, Tome 2, p. 18).

28) Orose, IV, 6, 3–5.



Le port de Carthage (l'an 200 av. J.-C.)

l'Égypte et à l'extrémité du golfe Arabique. La Syrie comprend de grandes provinces : la Commagène, la Phénicie et la Palestine, sans compter les Saracènes et les Nabatéens qui forment douze peuples²¹. En parlant de la géographie de la Chypre, il écrit qu'elle est entourée au midi par la mer de Syrie et de Phénicie²². La Phénicie, selon Orose, se situe sur le littoral Est de la Méditerranée, mais il ne laissa pas de détails concernant ses limites et ses villes.

En parlant du règne d'Artaxerxès (425 – 338 av.J.C.) il écrit que ce roi Perse « *détruisit Sidon, la ville la plus riche de la province de Phénicie* »²³, mais il ne précisa pas la date de sa destruction. On ignore quelle est la source d'Orose, sachant que la campagne d'Artaxerxès contre la Phénicie eut lieu entre 351 et 346 av. J.-C. et que Diodore de Sicile (vers 90 – vers 30 av. J. – C.) fut le premier à mentionner²⁴.



Artaxerxès (Bas relief)

21) Orose, I, 2, 24.

22) Orose, I, 2, 96.

23) Orose, III, 7, 8.

24) Diodore de Sicile, XVI, 42, 2.

(v.263-339/40) qui lui fournit un cadre chronologique, les histoires de Justin (II^{ème} siècle), de Florus¹⁶, de Salluste¹⁷, de Suétone (70–122 apr. J.-C.), de Rufin (345–411/12), et d'Augustin. Mais comme beaucoup d'historiens anciens, il n'utilisa pas directement les sources qu'il nomma, et ne cita pas ses véritables sources¹⁸. D'autre part son œuvre inspira Ibn khaldūn (1332–1382) qui s'appuya sur une traduction arabe pour rédiger l'histoire ancienne des Grecs et celle des Romains et de Carthage dans son histoire universelle.

De façon générale, sa source principale pour l'histoire Greco-Orientale, et de Carthage avant les guerres puniques, fut l'abrégé des histoires Philippiques dû à Justin; il se réfère à Tite-Live pour l'histoire des guerres Puniques¹⁹.

2 – La Phénicie d'après Orose

En décrivant la géographie du monde ancien²⁰, Orose évoqua la géographie de la Syrie, qui selon lui, s'étend de l'Euphrate en Orient jusqu'à « *notre mer* » (la Méditerranée) qui est au couchant, et d'autre part, du septentrion, c'est-à-dire de la cité de Dacuse, située à la limite de la Cappadoce et de l'Arménie, jusqu'à

écrivain. Il rédigea un Ouvrage d'histoire en sept livres constitué de notes rédigées lors de la guerre des Gaules vers 52-51 av. J.-C. (*Commentaires sur la guerre des Gaules et sur la guerre civile*). Au début de l'année 44, il gouverna Rome, mais il fut assassiné la même année. Y. le BOHEC, "César", *DA*, p. 459–462.

16) Florus (II^{ème} siècle) fut un historien romain dont plusieurs ouvrages ou fragments d'ouvrages datés du II^{ème} siècle nous ont été transmis sous son nom, le plus connu fut le *Résumé de Tite-Live*, qui a influencé la vision de l'histoire romaine des écrivains chrétiens, notamment Augustin. M. de FRANCHIS, "Florus", *DA*, p. 922.

17) Historien romain (86-35 av. J.-C.), il occupa plusieurs fonctions politiques, mais après avoir échappé, grâce à la protection de César, il abandonna la vie politique et fut l'auteur de trois grands ouvrages dont deux nous sont parvenus entièrement, et le troisième les « histoires » que sa mort laissa inachevées. M-P ARNAUD-LINDET, "Salluste", *DA*, p. 1941–1943.

18) Pour plus de détails : F. PASHOUD, « Orose », *DECA*, tome II, p. 1842.

19) Véronique KRINGS, *Carthage et les Grecs C. 580-480 AV. J.-C, Textes et histoires*, p. 70–71.

20) *Orose*, I, 1–2.



Un bateau de Carthage

par les premiers livres de « la cité de Dieu » et montra que les malheurs de Rome n'avaient pas commencé avec la victoire du christianisme. Dans le prologue de son histoire, Orose affirma qu'Augustin lui demanda de développer à partir de tous les fastes et des histoires et des annales, en remontant à travers les siècles passés, l'histoire des malheurs qui avaient affligé l'humanité. Il conclut que les malheurs du passé furent plus terribles que ceux du présent, et que le règne de la mort ne sera absolument plus rien depuis que le christianisme triomphait¹².

Il chercha dans son œuvre à démontrer la cohérence de l'action de la providence dans laquelle l'intervention de Dieu dans l'histoire est claire¹³. Il essaya de confirmer le point de vue d'Augustin, mais il ne semble pas qu'il ait réussi. Augustin ne mentionna pas Orose après la parution de son Histoire, on peut même se demander si vraiment il lui a confié d'écrire son livre¹⁴.

Dans son œuvre historique, Orose cita plusieurs sources: Tite-live (59? Av. J.C-17 apr. J.C), César¹⁵, la chronique d'Eusèbe



Eusèbe de Césarée

12) Orose, *Prologue*, 10–14.

13) V. KRINGS, *Carthage et les Grecs C. 580-480 AV. J.-C., Textes et histoires*, p. 68.

14) F. PASHOUD, « Orose », *DECA*, II, pp. 1842 -1843.

15) César (100–44 av. J.-C.) connu comme un homme exceptionnel à Rome, dota de talents multiples, a exercé les métiers de directeur de services techniques et financiers, de juriste, de général et d'amiral, homme d'état et

les doctrines « Priscillianistes »⁹ et les « Origénistes »¹⁰ répandues dans la péninsule Ibérique et invita Saint Augustin à les réfuter. Le deuxième « *Liber apologeticus aduersos Pelagianus* » controversa les idées de Pélagie, et fit la seule source sur la conférence de Jérusalem en juillet 415¹¹.

Le troisième livre s'intitule « *Historiarum aduersus paganos* » qui fut la plus ancienne histoire universelle chrétienne. L'œuvre fut répartie en sept livres, débutant par une introduction géographique et l'histoire s'étendant du déluge à la fondation de Rome. Le quatrième livre traite de l'histoire de Rome jusqu'à la destruction de Carthage.

La rédaction de cette œuvre fut une conséquence de la prise de Rome par Alaric en 410. Les historiens « païens » prétendaient que cet événement fut la conséquence de l'abandon des cultes traditionnels. Selon eux Rome fut punie pour avoir abandonnée ses anciens dieux qui avaient fait sa grandeur, alors qu'« Augustin » répliqua



Saint Augustin dans son cabinet de travail (par Botticelli, vers 1480)

9) Priscillien, mort à trêves en 385, est un évêque d'Avila, et le premier chrétien condamné à mort et exécuté par l'autorité chrétienne de Rome pour hérésie. Son corps fut transporté en Espagne par ses partisans, et il devint la figure charismatique d'un vaste mouvement qui recrute des adeptes en Gaule et en Espagne, pendant les dernières années du IV^{ème} et la première moitié du V^{ème} siècle, et dont lequel se prolonge jusqu'au milieu du VI^{ème} siècle. J. VILELLA, « Priscilien », *DA*, pp. 1802–1803.

10) L'Origénisme désigne un ensemble de prises de position théologiques chrétiennes attribuées à Origène (185–251) dans le cadre de controverses qui ont laissé des traces dans l'histoire des conciles et de la théologie byzantine. En 553, Justinien réunit le V^{ème} concile œcuménique à Constantinople, les actes du concile condamnent la doctrine attribuée à Origène. G. DORIVAL, « Origénisme », *DA*, pp. 1582–1583.

11) Francois PASHOUD, « Orose », *DECA*, II, p. 1841.

1 – Orose : Vie et œuvres

Paul Orose est un historien et apologiste chrétien, né à Tarragone³ vers 390. On ne sait rien de sa vie avant l'an 414, quand il s'installa à Hippone⁴ et entra en contact avec saint Augustin⁵,



Carte de la Phénicie

qui lui recommanda en l'an 415 de se rendre en Palestine, où il séjourna à Bethléem près de saint Jérôme (345 – 419), et se montra adversaire de Pélage⁶. En 416, il revint à Hippone et il y rédigea entre 414 et 417 son œuvre historique universelle « *historium adversum paganos* »⁷. On ignore tout de sa vie ultérieure⁸.

Trois livres d'Orose furent connus: le premier « *Commonitorium de errore Priscillianistarum et Origensitarum* », fut un bref mémoire remis à Augustin, il fournit une orientation contre

- 3) Une ville d'Espagne dans laquelle se trouve le palais d'Auguste.
- 4) Ancienne ville de Numidie dont saint Augustin fut évêque de 396 à 430.
- 5) Saint Augustin (354–430), docteur et père de l'église, évêque d'Hippone de 418 à 430, en Afrique proconsulaire, il semble avoir appartenu à une famille africaine, vraisemblablement punique, il évoque avec sympathie la lutte finale de Carthage contre Rome. Il avait une notion de la langue punique, dont il cite quelques mots dans ses écrits. Cf. E. LIPINSKI, "Saint Augustin", *DCPP*, p. 49; A. MANDOUZE – D. DOUCET, "Augustin d'Hippone", *DA*, pp. 285–289.
- 6) Moine naquit en grande Bretagne (350–420/30), mais on ne connaît ni le lieu ni la date précise de sa naissance. D'après lui l'homme peut faire son salut par ses propres mérites, et nie le péché originel. Ses doctrines furent condamnées par les pères de l'église. Y-M DUVAL "Pélage", *DA*, pp. 1684–1685.
- 7) Véronique KRINGS, *Carthage et les Grecs C. 580-480 AV. J.-C, Textes et histoires*, Leiden – Boston – Köln, Brill, 1998, p. 68.
- 8) Francois PASHOUD, « Orose », *DECA*, II, p. 1841.



Paul Orose (d'après une miniature
tirée d'un manuscrit de Saint-Epire)

Parmi ces sources, on cite l'œuvre d'Orose, le premier chrétien qui a composé une histoire universelle. Son œuvre fut mal étudiée et interprétée, et la Phénicie n'apparaît que rarement dans ses œuvres. Par contre, il s'intéresse à l'histoire de Carthage et consacre une digression à son histoire avant de parler des guerres puniques (264 – 146 av. J.-C.), expression employée par les auteurs anciens pour désigner les guerres menées par Rome contre Carthage. Au début du III^{ème} siècle, Rome conquiert l'Italie, Carthage domine l'Afrique. Les deux forces se heurtent en Sicile, mais le conflit s'étend sur plus d'un siècle et concerne le bassin occidental de la Méditerranée et même la Grèce continentale.

Ces guerres furent mal connues à cause de l'absence des sources carthaginoises. D'autre part, les sources authentiques furent composées par des écrivains grecs et romains, mais elles ne sont pas toujours fiables puisqu'elles reflètent le point de vue d'une seule fraction.

C'est ainsi que le présent article porte sur une étude critique du livre d'Orose et de ses sources, et constitue un essai pour chercher de nouvelles sources qui aident à mieux comprendre l'histoire phénico – punique.

Phénicie et Carthage d'après Orose

Marwan Abi Fadel

Professeur d'histoire – Faculté des lettres
et des Sciences Humaines – université
Libanaise (Marwan.abifadel@ul.edu.lb)

Introduction

La Phénicie désigne une région du littoral Est de la Méditerranée qui commence au sud du Mont Carmel et continue vers le nord jusqu'au-delà d'Ougarit, près du golfe d'Issos. C'est une bande côtière encerclée par la mer à l'ouest et les chaînes du Liban et des monts Nozairiens à l'Est. Elle comprend l'ensemble des sites ruraux et urbains formés avant le IV^{ème} millénaire. Les invasions des peuples de la Mer survenues peu après 1200 av. J.-C. furent une histoire décisive pour distinguer une période paléo- phénicienne ou cananéenne, de la période phénicienne du premier millénaire, englobant les cités du littoral qui s'étendent entre Arwad au nord et Mont Carmel au sud. Vers l'Est, les Phéniciens s'installèrent dans la plaine de la Bekaa.

Dès le début du premier millénaire, les Phéniciens se déployaient dans les côtes de la Méditerranée, fondèrent des comptoirs et des colonies, dont la plus puissante et la plus répandue fut Carthage. Cette grande cité punique, a lutté contre Rome, pour contrôler la Méditerranée occidentale.

Les historiens ont tendance aujourd'hui à utiliser le terme « Phéniciens » pour désigner l'histoire de la civilisation phénicienne en Orient, et « Puniques » pour identifier l'histoire des Phéniciens en Occident. Mais il manque la documentation nécessaire au niveau des sources directes pour l'étude de la civilisation phénico-punique¹. Par contre, les sources indirectes sont nombreuses, surtout les sources gréco-latines importantes pour l'étude de la civilisation Phénico-Punique².

1) Sur l'importance des sources directes : M.G. GUZZO, In: KRINGS V. (éd.), *La civilisation phénicienne et punique: manuel de recherche*, Leiden – New-York – Köln, Brill, 1995, pp. 19–38.

2) Sur l'importance des sources gréco-latines : S. RICHBINI, In: KRINGS V. (éd.), *La civilisation phénicienne et punique: manuel de recherche*, pp. 38-74.

Patrimoine Historique

Marwan Abi Fadel

Phénicie et Carthage d'après Orose

Mirrors of Heritage

Refereed journal
published twice a year
by
The **Center for Lebanese Heritage (CLH)**
at
The **Lebanese American University (LAU)**

Henri Zoghaib – Editor

Issue No. 17 – Fall 2022 / Winter 2023

**How to preserve our heritage?
Al. Hoda, the prestigious Lebanese newspaper
in NY (1898–1992).**

The problem of issuing a textbook on Lebanon's history

The cinema halls in Tripoli

Women pioneers in Lebanon

Special section: **10 paintings and their texts by Lamia Labban (California)**

**Phénicie et Carthage d'après Orose
Les chrétiens des régions voisines de Tripoli
au début du XIV^e siècle**

**Center for Lebanese Heritage
Lebanese American University, Kraytem, Beirut – Lebanon**

Phone: +961.1.78 64 64 (ext: 1600)

P.O. Box: 5053 13 Beirut – Lebanon

email: clh@lau.edu.lb

www.lau.edu.lb/centers-institutes/clh

Design and layout by STRATCOM–LAU

Cover: 2 of 10 paintings by Lamia Labban (California)

Mirrors of Heritage

Issue No. 17 – Fall 2022 / Winter 2023



Special section

• 10 paintings and their texts
by Lamia Labban

• Phénicie et Carthage
d'après Orose

• Les chrétiens autour de Tripoli